



الضنون البلاغية في بيان أبي عثمان



للدكتور علي محمد حسن العمري



عاش أبو عثمان عمرو بن بحر في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، والنصف الأول من القرن الثالث .

كانت ولادته في سنة ١٥٩ هـ ، ووفاته في سنة ٢٥٥ هـ ، وكانت حياته بمدينة (البصرة) ، وهي - حينذاك - تجمّع بألوان كثيرة ، ومختلفة من الدراسات الأدبية والعلمية والفلسفية .

وكان الرجل نادرة في الشغف بالعلم والدرس والتأليف ، وقد هضم ثقافات عصره ، وألف في أكثر فروعها ، وكان كثير من مؤلفاته صدّى لما تحفل به بيئته العلمية والأدبية .

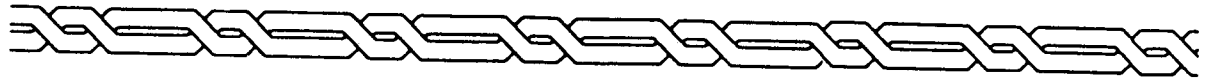
وكان تلميذاً للمتكلم الكبير (إبراهيم بن سيار النظام) ، شديد الإعجاب به ، كثير الثناء عليه ، وكان النظام قوى الحجة ، ساطع البرهان ، خبيراً بمسالك الجدل ، فكثير أتباعه ، بل كان الناس يتحولون من حلقات العلماء إلى حلقاته ، ويعتقدون مذهبه إعجاباً برأيه ، وتأثراً بسلامة منطقته ، وقوة حجته .

نفوسهم موقع الماء من ذي الغلة الصادي ،
فاتخذوه - وغيره - وسائل للطعن على الإسلام
وكتابه .

والشعويون في ذلك العصر عرفوا بعداوتهم
للإسلام وللعرب ، وللغتهم وسلطانهم ، أما
الزنادقة ، وزنادقة الكُتّاب - بخاصة - فكانوا .
ما يكاد أحدهم يحفظ شيئاً من الكلام ، ويشدو

ومن المشهور أنه كان للنظام رأى خاص
- اعتقده - في سر إعجاز القرآن الكريم . وقد
عرف هذا الرأى به ، لمبالغته في الدفاع عنه ،
وبذلك وقعت الشبهة في نفوس كثيرين من طلاب
المعرفة .

وقد وجد هذا المذهب الباطل له أنصاراً من
الشعويين والزنادقة أعداء الإسلام ، بل وقع من



يسيرا من العلم ، ويروى قليلا من الأدب حتى يظن نفسه صاحب علم ورأى : (فيكون أول بدوة الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل لآثار^(٢)) .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره أبو عثمان عند احتجاجه للتسفيه في قوله تعالى عن شجرة الزقوم ! « طلعها كأنه رعوس الشياطين^(٣) » إذ يقول : (فقال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره ، فتتوهمه ، ولا وصفت لنا صورته .

لنا صورته في كتاب ناطق ، أو خبر صادق .. وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعيش أهل الكتاين ، وحملة القرآن من المسلمين ، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ، ولا يقفون عليه ، ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك بعيداً عاماً^(٤)) .

وكان من هؤلاء من لا يتورع عن الاستخفاف بالقرآن ، والتهوين من شأنه .

روى بشار بن برد ، قال : بلغني أن رجلاً كان يقرأ القرآن ، وحماد (يريد حماد عجرد) ينشد الشعر ، فاجتمع الناس على القاريء ، فقال حماد : علام تجتمعون ؟ فوالله . لما أقول أحسن مما يقول^(٥) .

وروى أن عبد الكريم بن أبي العوجاء - وزندقته أشهر من أن توصف - رأى عدلاً ، عليه آية الكرسي ، فقال لصاحبه : لم كتبت هذا عليه ؟ ، فقال : لثلاث تسرق - فقال : قد رأينا مصحفاً سرق^(٦) . هذه واحدة .

أما الثانية : فقد كانت البصرة ، والخواضر الإسلامية - بعامة - تموج بعلماء قد انخرفت أذواقهم ، في رأي أبي عثمان .

فمنهم من كان يُعني بالغريب ، ويتبجح بروايته ، وربما استعمله في كلامه ، فعيى بن عمر ، المتوفي سنة ١٤٩ هـ كان صاحب تقعر في كلامه ، واستعمال للغريب فيه ، وفي قراءته ، والنضر بن شميل كان صاحب غريب ، وكذلك ابن كنانة الكوفي المتوفي سنة ٢٠٧ هـ .

أما أبو عبيدة معمر بن المثنى ، المتوفي سنة ٢١١ هـ ، فكان الغريب أغلب عليه وكان يبغض العرب ، وقد ألف كتاباً في مثالبها .

وخلف الأحمر [١٢٣-٢١٣ هـ] كان راوية ، وعالماً بالغريب ، وأبو زيد الأنصاري كانت اللغات ، والنوادر في الغريب أغلب عليه ، وأبو مهدية كان أعرايياً ، صاحب غريب^(٧) .

وكان هؤلاء ، وغيرهم من أمثالهم يديرون في كتبهم ألفاظاً من الغريب يقول عنها الجاحظ : أن

(٤) كتاب الحيوان ج ٦ . ص ١١٢ .

(٥) أمالي المرتضى ج ١ . ص ٩٣ . ط ١ . أولى

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٩٥

(٧) المعارف لابن قتيبة ص ٢٣٥-٢٣٦

(١) ذلك هو مذهب (الصرفة) ولي فيه رأى خاص دونه في كتابي : (حول إعجاز القرآن) .

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ . ص ٤٢ ، وضحي الإسلام ط . ص ١٥٢ .

(٣) سورة الصافات الآية ٦٥ .

الأصمعي لو خوطب بمثل هذا لظننت أنه سيجهل بعض ذلك .

ومنهم من كان يستحسن الشعر الرديء ، ويدخله في بعض ما يختار ، يقول الجاحظ : (ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذكر ، وربما خيل إليّ أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن يقولوا شعراً جيداً لمكان أعراقهم من أولئك الآباء .. ولولا أن أكون عياباً ثم للعلماء خاصة لصورت لك بعض ما سمعت من أبي عبيدة ، ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة ^(٨)) .

ومنهم - بل أكثرهم - من كانوا يتعصبون على الشعراء ، فيبهرون أشعارهم ، ويحكمون على ألفاظهم بالسخف ، وعلى معانيهم بالأخذ من معاني السابقين ، فالمعاني الواهية من عندهم ، والمعاني الجيدة من السابقين أخذوها .

ثم تتور الخصومة بين الرواة والشعراء :

سئل أبو نواس عن جرير والفرزدق والأخطل ، ففضل جريراً فقليل له : أن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا ، فقال : ليس هذا من علم أبي عبيدة ، فإنما يعرفه من دُفع إلى مضايق الشعر ^(٩) . وقابل الرواة تحدياً بتحد مثله ، فأخذوا يتأدحون : فأبو عبيدة يمتدح خلفا الأحمر بأنه معلم أهل البصرة ، والأخفش يقول : لم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف الأحمر ،

والأصمعي ^(١٠) ، وأبو زيد الأنصاري يقول : وكان يونس - يعنى يونس ابن حبيب النحوي - عالماً بالشعر ، نافذ البصر في تمييز جيده من رديئه ، عارفاً بطبقات الشعراء حافظاً لأشعارهم ، يرجع إليه في ذلك كله ^(١١) .

ويحكى ابن سلام الجمحي أن قائلاً قال لخلف الأحمر : إذا سمعت أناب شعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك ، فقال خلف له : إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته ، فقال لك الصراف : أنه رديء . هل ينفعك استحسانك له ^(١٢) ؟!

فالرواة العلماء كانوا يعدون أنفسهم صيارفة الشعر والكتاب والشعراء كانوا يعتقدون أنهم أعرف بنقد الشعر .

★ ★ ★

★ ★ ★

في هذه الأجواء التي أشرت إليها : جو المتكلمين من النظام وأصحابه وخصومه وجو الطاعنين على العربية ، وعلى القرآن ، وجو العلماء الذين يستحسنون ما ليس بحسن من الشعر ، وجو هذه الخصومة بين الرواة والعلماء ، وجهابذة القول من كتاب وشعراء .

أقول : في هذه الأجواء كلها كتب أبو عثمان بيانه الذي أودعه مجموعة من الكتب منها ما وصلنا ومنها ما غيبه الزمن في أخفى زواياه ، وكان من

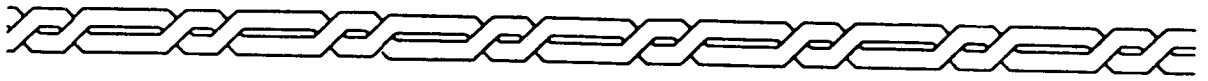
(١١) المصدر السابق ج ٢٠ . ص ٦٥

(١٢) سمعت بأن أحد المحققين اهتدى إلى نسخة من هذا الكتاب .

(٨) البيان والتبيين ج ٤ . ص ٢٤

(٩) العمدة لابن رشيق ج ١ . ص ٩٥

(١٠) معجم الأدباء ج ١١ . ص ٦٧



أشهرها كتاب (نظم القرآن) وكتاب (الحيوان) وكتاب (البيان والتبيين) و (الرسائل) وقد أودعها جميعاً آراء له في جمال القول وروعة التعبير ، وفي إعجاز القرآن ، ولعل من أوفاهها في هذه القضية الأخيرة كتاب (نظم القرآن) الذي لم يبرز للوجود إلى الآن (١٢) .

وكان من الطبيعي أن يعرض في بيانه لبعض الفنون البلاغية ، وأن لم يقصد إليها قصداً بدليل أنه لم يضمها جميعاً في باب .

قال أبو هلال العسكري ، في مقدمة كتابه : (الصناعتين) ، وهو يتحدث عن البيان العربي : (فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام ، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبيل ، ووجدت الحاجة إليه ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب (البيان والتبيين) لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو — لعمرى — كثير الفوائد ، جم المنافع ، كما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في أثنائه فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير . فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صفة الكلام نثره ونظمه ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير

وإخلال ، وإسهاب وإهذار) .

وإذا كان أبو هلال قصر نظره على كتاب واحد ، هو (البيان والتبيين) وإذا كان لم يجمع ما وجده متفرقاً وضالاً بين الأمثلة من الوجوه البلاغية ، والفنون البيانية والألوان البديعية .

إذا كان هذا صنيع أبي هلال ، فإننا نختلف عنه كثيراً فنظرنا لم يقتصر على كتاب واحد ، بل تعداه إلى كل ما استطعنا أن نصل إليه من كتبه ، ثم إننا جمعنا ما استطعنا أن نهتدي إليه من تلك الفنون في بحث واحد ، بحيث يتبين لكل ناظر دون جهد أو عناء جماع ما دونه أبو عثمان من الفنون البلاغية في كتبه ، ولولا الإطالة لألحقنا بهذا البحث بحثاً آخر هو مدى ما استفاده علماء البيان الذين جاءوا بعد الجاحظ مما دونه في بيانه وبخاصة أولئك العلماء الذين قيدوا الفنون البلاغية بقواعد وضوابط ، ورتبوا لها الشواهد ، وبنوا لها المقاصد .

هذا ولا شك أن كل دارس للبلاغة سيدرك يسر وسهولة بعد مطالعة الفصل مدى أثر أبي عثمان فيمن جاءوا بعده من علماء البلاغة والبيان .

.....
.....
.....

غاية البيان

مذهب أبي عثمان في البلاغة والبيان ، بل مذهب كل ناقد للأدب مرتبط أشد الارتباط بالغاية من البيان ، لأنها الهدف الذي يقصد القائل بلوغه والباعث الذي يحمل الشاعر والكاتب والخطيب ، وكل ذي بيان على أن يميز القول ويزينه ، وينمقه ويوشيه .

السامع) . ثم قال : (أما أنا فأستحسن هذا القول جدا ^(١٤)) .

وإنما استحسنه (جدًّا) لأنه وافق مذهبه في (الغاية من البيان) ، فالإمام إبراهيم يجعل البلاغة في حسن الإفهام ، وحسن الفهم ، فلا يكون تكلف القائل ، وتعقيده سبباً في مؤنة على السامع ، ولا يضطر سوء فهم السامع قريحة القائل إلى أن تبالغ في تفهيمه ، وتطلب الألفاظ النازلة والسوقية .

وكما استحسن هذا القول ذكر تعريفاً للبلاغة ، وقال عنه ، إنه (من أحسن ما اجتنبناه ، ودوناه) ، وهو قول بعضهم : (لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك ^(١٥)) .

والذي نفهمه من هذا التعريف أنه يعنى ما يردده الجاحظ كثيراً من ضرورة أن يكون اللفظ واضحاً ، والمعنى قريباً ، لا أغراب فيه ، ولا أبعاد ، وكما يقول : (لا ينبغي لكتب الأدب أن يحمل أصحابها على الجد والصرف ، وعلى المعاني الصعبة ، التي تستلذ النفوس ، وتستفرغ الجهود ، وللصبر غاية ، وللاحتمال نهاية ^(١٦)) .

وكما يقول — أيضاً — : (وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الرويه ، ويحتاج من اللفظ إلى

وقد عقد الجاحظ في أوائل كتابه (البيان والتبيين) باباً في (البيان) ، وقال : وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب ، ولكننا أخرناه لبعض التدبير .

وفي هذا الباب ذكر أن المعاني مستورة خفية ، ومحجوبة مكنونة ، لا يظهرها إلا الأخبار عنها ، وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى ، ونفعه ، ثم قال : (والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه ، ويدعو إليه ، ويحث عليه . بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم ^(١٧)) .

والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى : (لأن مدار الأمر ، والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام)

والجاحظ بذلك يعمم في معنى كلمة (البيان) حتى يشمل اللفظ وغير اللفظ ولكن الذي يعيننا — هنا — هو الدلالة اللفظية على المعاني التي في الصدور .

وهو — لذلك — يختار من تعاريف البلاغة التي أوردها هذا المعنى ، فقد ذكر قولاً في البلاغة للإمام إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم أجمعين — وهو : (يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتي السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتي الناطق من سوء فهم

(١٥) المصدر السابق ج ١ . ص ١١٥

(١٦) رسائل الجاحظ (هامش الكامل) ج ١ . ص ١٥٥

(١٣) ج ١ . ص ٧٥

(١٤) المصدر السابق ج ١ . ص ٨٧

والصواب ، والإغلاق والإبانة ، والملحون
والمعرب كله سواء ، وكله بياناً . وإنما عنى
العتائي : إفهامك حاجته على مجاري كلام العرب
الفصحاء^(١٨)

وقد أشار الجاحظ في اعتراضه على أبي عمرو
الشيبياني — كما سنذكره — وفي توضيحه الغاية من
البيان إلى أمور هي قوام البلاغة ، وعمادها ، أشار
إلى : (إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة
الخرج ، وصحة الطبع ، وجودة السبك ،
ووضوح الدلالة ، وحسن الاختصار) .

وقد تناول كل هذه الصفات في كتبه ، حتى
يؤكد مذهبه في إشار الوضوح ، والأخذ به ،
وليصل من ذلك إلى الاحتفال باللفظ ، وفي أثناء
ذلك ألمح إلى فنون يمانية ، وبديعية ، لعله أول من
أبرزها ، سواء في الآيات القرآنية ، أو في شعر
العرب ونثرهم .

فكان من الحتم على كل من يحاول أن يجمع شتات
الفنون البلاغية في بيان

أبي عثمان أن يقف طويلاً عن حديثه عن
اللفظ ، وسيقوده ذلك حتماً إلى مذهب الجاحظ
في المعنى ، كما أن الباحث لابد أن يطيل النظر في
كتبه ليستخرج منها الفنون البديعة والبيانية التي
ظلت ماثرة في كتبه ، وضالة بين الأمثلة — كما قال
العسكري - ..

مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ،
ويحطه من غريب الأعراب ، ووحشي الكلام ،
وليس له أن يهذبه جداً ، وينقحه ويصفيه
ويروقه ، حتى لا ينطق إلا بلب اللب ، وباللفظ
الذي قد حذف فضوله ، وأسقط زوائده ، حتى
عاد خالصاً لا شوب فيه ، فإنه إن فعل ذلك لم
يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم إفهاماً مراراً وتكراراً ،
لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من
الكلام^(١٧) .

ولا يقال : إن جعل الغاية من البيان
(الإفهام) يقتضى أن يكون كل كلام مهما كانت
درجته من الجمال بليغاً ، طالما أن قائله أفهم
السامع والقارئ الذي يريد أن يفهمهما إياه ،
لأن الجاحظ لا يقصد ذلك ، بل يقصد الإفهام
بالألفاظ والأساليب التي تواضع عليها العرب .
ومما يدل على ذلك أنه حين ذكر تعريف
(العتائي) للبلاغة ، وهو : (كل من أفهمك
حاجته من غير إعادة ، ولا جُبسة ،
ولا استعانة ، فهو بليغ) علق عليه بقوله :
(والعتائي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو
بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين
والبلدين قصده ومعناه بالكلام الملحون ،
والمعدول عن جهته ، والمعروف عن حقه أنه
محكوم له بالبلاغة ، كيف كان بعد أن نكون قد
فهمنا عنه ، فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع
يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة والخطأ

(١٧) كتاب الحيوان ج ١ . ص ٩٠

(١٨) البيان ج ١ . ص ١٦١-١٦٢

سمات اللفظ البليغ

اللفظ المختار :

على القائل أن يختار اللفظ المناسب للسامع ،
الخفيف على اللسان ، العذب على الأسماع :
(وكلام الناس طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في
طبقات ، فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح
والحسن ، والقيح والسمج ، والخفيف والثقيل .
وكله عربي ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد
تمادحوا وتعابوا^(١٩)) .

فمن أراد البلاغة فعليه أن يختار الوسط من
الألفاظ : (فكما لا ينبغي أن يكون اللفظ
عامياً ، وساقطاً سوقياً ، فكذلك لا ينبغي أن
يكون غريباً وحشياً ، إلا أن يكون المتكلم بدوياً
أعزياً ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من
الناس^(٢٠)) .

ومن خفة اللفظ أن يتركب من حروف خفيفة
ملائمة ، وقد بين الجاحظ أن من الحروف
ما لا يجتمع بعضه مع بعض ، كالجم والطاء ،
والطاء والغين ، ثم قال : وهذا باب كبير ، وقد
يلتقى فيه بذكر القليل ، حتى يستدل به على الغاية
التي يجري إليها .

ويكرر كثيراً وصف الألفاظ بما يجعلها خفيفة
على الألسن ، عذبة على الأسماع ، موفية على
الغاية .

ينقل عنه (ياقوت الحموي) كلمة ،
خلاصتها : أن اللفظ متى طابق معناه ، وأعرب
عنه ، ووافق الحال ، وخرج عن التكلف
والإستكلاء ، ومتى كان كريماً متخيراً وسليماً من
الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حُبب إلى النفوس ،
وخف على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق
ذكره^(٢١) .

وموافقة الحال التي ذكرها الجاحظ معناها أن
يستعمل اللفظ عند القوم الذين يألفونه ، ويجري في
مخاطباتهم ؛ فإن لكل صنف من الناس كلمات
حظيت عندهم ، فللكتاب ألفاظ ، وللشعراء
ألفاظاً ، ولطوائف من الناس ألفاظ هي أمس بهم ،
وأقرب إليهم ، فعلى البليغ أن يتجنب الألفاظ التي
لا تناسب المستمعين ، فإن كان الخطيب متكلماً
تجنب كلام المتكلمين إذا كان يخاطب طائفة
غيرهم ، كما أنه عبر عن شيء من صناعة
الكلام كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين .

قال : (وقد تحسن ألفاظ المتكلمين في مثل
شعر أبي نواس ، وفي كل ما قالوه على وجه التطرف
والتملح^(٢٢)) .

وأبو عثمان يزعم أن سخييف الألفاظ مشاكل
لسخييف المعاني ، وأنه يحتاج إلى السخييف في
بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل
الفخم من الألفاظ ، والشريف الكريم من المعاني .
قال : ومتى سمعت — حفظك الله — بنادرة

(٢١) معجم الأدباء ج ١٦ . ص ٩٥ . وانظر (البيان) ج ٢ . ص ٨ .

(٢٢) البيان ج ١ - ص ١٤١ .

(١٩) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٤ .

(٢٠) الموضع السابق .

قال الجاحظ : ورب إسم إذا صغرته كان أملاً للصدر ، مثل قولك : أي عبيد الله هو أكبر في السماع من أي عبد الله ، وكعب بن جُعيل هو أفخم من كعب بن جعل .

وكانو يكرهون ألا تكون الألفاظ قريبة الدلالة على معانيها ، وفيها شيء من الأبعاد . سمع عمر - رضى الله عنه - رجلاً يدعو ، ويقول : اللهم اجعلنى من الأقلين . قال عمر : ما هذا الدعاء ؟ قال الرجل : إني سمعت الله - عز وجل - يقول : « وقليل من عبادي الشكور »^(٢٥) ، وقال : « وما آمن معه إلا قليل »^(٢٦) . قال عمر : عليك من الدعاء بما يعرف^(٢٧) .

ثم أورد الجاحظ ألفاظاً كثيرة كرهها الصحابة ومن بعدهم ، ونقل السر في كراهة بعضها ، ولم يقف عليه في كراهة بعضها الآخر .

وقد أشرت في بعض ما نقلت عنه أنه كان يكره أن تهذب الألفاظ حتى لا يكون إلا (لبّ اللب) وإلى سر ذلك عنده وهذه حقيقة ، فهو - مع عنايته باختيار اللفظ - كان يكره المبالغة في التهذيب ، ويدعو إلى الاقتصاد في ذلك ، ويكفي أن ينظر البليغ في مواقع الألفاظ ، وأين استعملها العرب^(٢٨) .

ويذكر قول رسول الله - ﷺ - : (لا خلافة) ، ويذكر كلمة لبعض الربانيين من أهل المعرفة بما يعتري الإنسان من الفتنة بحسن

من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخارج كلام المولدين ، والبلديين ، خرجت بها من تلك الحكاية وعليك فضل كبير ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها^(٢٣) .

ونلاحظ هنا أن أبا عثمان جعل للبيان غاية أخرى وراء الأفهام هي (الأمّاع) فلا يظن ظان أن الجاحظ أخطأ حين قصر غاية البيان على الإفهام .

ولذلك - أيضاً - كان يستملح اللحن من الجوارى الطراف ، ومن الشّوَاب الملاح ، ومن ذوات الحذور ، ما لم تكن واحدة منهم صاحبة تكلف . وقد ذكر ألفاظاً كانت مكروهة من طريق الرواية . من ذلك ما روى عن رسول الله - ﷺ - من قوله : (لا يقولن أحدكم : تحبث نفسي ، ولكن ليقُل : لفست) ، كأنه كره - ﷺ - أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه .

وجاء عن عمر ومجاهد وغيرهما النهي عن قول القائل : استأثر الله بفلان بل يقال : مات فلان ، ويقال : استأثر الله بعلم الغيب^(٢٤) .

وكره مجاهد أن يقولوا : مسيحد ومصيحف للمسجد القليل الزرع ، والمصحف القليل الورق .

(٢٦) سورة هود . من الآية ٤٠

(٢٧) الحيوان ج ١ ص ٣٣٨

(٢٨) الحيوان ج ٣ ص ٣٤٣

(٢٣) المصدر السابق - ج ١ - ص ١٤٥ .

(٢٤) الحيوان ج ١ - ص ٣٣٥ .

(٢٥) سورة سبأ . من الآية ١٣

نفسى : إني لأحسبه صادقاً ، وإني لأظنهم ظالمين له (٣٠) .

وقد يقال : إن هذه النظرة من الجاحظ نظرة دينية ، فلا تصلح مقياساً في نقد الأدب ، وهذا فيه بعض الحق ، أما بعضه الآخر فإن لكل ناقد أن يشرع ما يشاء للنقد ، والجاحظ يرى أنه ينبغي أن يظل الأدب في حدود الدين .

ومع شغف الجاحظ الشديد باللفظ يرفض أن يكون تعشقه سبباً في الجور على المعنى ، يقول : (وشر البلغاء من هيا رسم المعنى قبل أن يهيه المعنى عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر المعنى جراً ، ويلزقه به إلزاقاً (٣١))

.....

وأشق ما يلقيه الأديب في تخيير اللفظ أن يضع كل لفظ في موقعه اللائق به ، وبهذا يتفاضل البلغاء .

وقد ذكر الجاحظ أن القرآن الكريم يستعمل ألفاظاً دون ألفاظ ترادفها فمثلاً لم يستعمل المطر إلا في موضع الانتقام ، ولم يستعمل الجوع إلا في موضع العقاب .. وهكذا .

الغريب :

ضاق أبو عثمان كل الضيق باستعمال الغريب ، إذ أنه لا يتفق مع في : (تخيير اللفظ) ، ولا في (غاية البيان) ولا في الوضوح الذي هو صفة كل كلام بليغ .

ما يقول . تحذر من حسن الألفاظ ، وحلاوة المخارج ، لأن الألفاظ تزين المعاني ، وتمنحها دلاً متعشقا ، فتصير في القلوب أحلى : (والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوي ومدخل خدع الشيطان خفي (٢٩)) .

وهو يوافق هذا الرباني ، وينصح بأن يكون هذا الباب على ذكر منا دائماً ، وألا تُفْرِط ، وقد أصبح بقبصة تشير إلى بعض التدبير في ذلك .

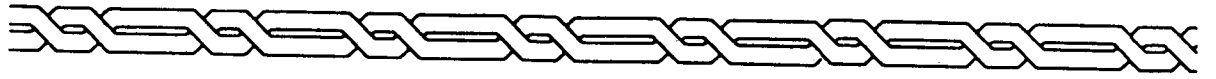
قال : إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - احتبس الأحنف بن قيس حولاً كاملاً - وهو - كما يقول الجاحظ - أين العرب والعجم قاطبة - ليبالغ في تصفح حاله ، ثم قال - بعد ذلك : (أن رسول الله - ﷺ - قد كان خوفاً كل منافق عليم ، وقد خفت أن تكون منهم) هذا كلام عمر ، ويعلق عليه الجاحظ فيقول وما قال ذلك إلا لما كان راعه من حسن منطقته ، ومال إليه لما رأى من رفقه ، وقلة تكلفه ، ولذلك قال رسول الله - ﷺ - : (إن من البيان لسحر) .

وكان كلمات هذا الرباني ، وكلمات الجاحظ معه ، ومن قبلها كلمة رسول الله (لا خلافة) ذهبت جميعاً إلى أن حسن البيان قد يكون وسيلة إلى الشر ، وقد يجعل الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، ومما يشير إلى ذلك قول مالك بن دينار - رحمه الله - : (ما رأيت أحداً أين من الحجاج ، إن كان ليرق المنبر ، فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم ، وإساءتهم إليه ، حتى أقول في

(٣١) رسالة المعلمين (هامش الكامل) ج ١ . ص ١٧

(٢٩) البيان ج ١ ص ٢٥٤

(٣٠) البيان ج ٢ . ص ٢٦٨



يكون من أخلاق الكاتب ، ولا يكون من أخلاقه ، فإن صح أنه تنبه لذلك فإنه يكون قد سبق أولئك النقاد الغربيين الذين يقولون إن أسلوب الرجل من الرجل .

وبسبيل من الغريب — عنده — التكلف ، وقد ذمه ، وأطال في ذمه ، في الكلام ، وفي غيره ، ويذكر في هذا الموضع قول الله لنبيه محمد : (وما أنا من المتكلفين^(٣٤)) .

والنبي — ﷺ — لا يمكن أن يتكلف ، لا في قول ولا في فعل ، وقد عاب التشدق وجانب أصحاب التقعر ، وهجر الغريب والحوشى ، وقد جمع الله لكلام نبيه الخلاوة والمهابة ، وحسن الإفهام : (ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أقصد لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح معنى ، ولا أئين فحوى من كلامه ﷺ^(٣٥)) .

ونلاحظ في هذا النص أن الجاحظ أشاد بالإيجاز (أقصد لفظا) ، وباعتدال مقاطع الكلام ، وبالسهولة والبيان ، ثم أنه وصف المعنى بالفصاحة مما يدل على أنه لا يفرق بينها وبين البلاغة ، وقلما يصف البلاغيون المعنى بهذا الوصف ، فالشائع عند متقدميهم ومتأخريهم وصف اللفظ بالفصاحة لا وصف المعنى بها .

وقد قدمت أنه قرأ وسمع أشياء من هذا الغريب ، وعرف صنيع قوم ممن يتعاطون هذا الغريب في أقوالهم أو في كتبهم . فسخر منهم ، وقال — بعد أن ذكر طائفة من غرائبهم ومروياتهم — : (فإن كانوا إنما رروا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة ، وإن كانوا إنما دونوه في الكتب وتذاكروه في المجالس لأنه غريب ، فأبيات من شعر العجاج ، وشعر الطرمّاح ، وأشعار هذيل تأتي لهم — مع حسن الرصد على أكثر من ذلك^(٣٦)) .

ثم وصف الغريب بأنه : (ليس من أخلاق الكتاب ، ولا من آدابهم) ، وبعد أن ذكر نماذج أخرى من الغريب ، وذكر فيها كلاما ليحيى بن يعمر ، قال : (وليس في كلام يحيى بن يعمر شيء من الدنيا إلا أنه غريب ، وهو — أيضا — من الغريب بغيض^(٣٧))

ولقد وقفت طويلا عن هذا الوصف من الجاحظ ، وعجبت له تبلغ به كراهته للغريب أن يجرده من كل صفة تكون في الدنيا إلا أنه غريب ، وإن كان قد وصفه — بعد ذلك — بأنه بغيض — فهل تراه لا يرى ذلك الوصف من الدنيا؟! كما استوقفني قوله في الغريب : إنه ليس من أخلاق الكتاب ، ولا من آدابهم فهل تنبه هذا الكتاب الكبير إلى أن للأسلوب ، وللألفاظ التي تستعمل صلة بأخلاق الكاتب ، بل هو يرى أن الأسلوب

(٣٤) سورة (ص) من الآية ٨٦ .

(٣٥) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧ - ١٨ .

(٣٦) البيان ج ١ ص ٣٧٨ .

(٣٧) المصدر السابق ج ١ ص ٣٨٠ .

التأفر

يحدد الجاحظ أجود الشعر بأنه ما كان متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، حسن الموقع ، ورديء الشعر بأنه ما كان مستكرهاً ، لا يقع بعض ألفاظه ملائماً لبعض ، فإن ذلك يكّد اللسان عند النطق به .

وقد مثل في هذا الموضع بقول محمد بن يسير الرياشي :

لم يضرها والحمد لله شيء
وانثت نحو عزف نفسي زهول
ثم قال : ففقدنا النصف الأخير من هذا البيت فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض (٣٦) .

وقد حكى تنبه الأصمعي إلى هذا النوع من الشعر الذي يكّد اللسان . قال : — يريد الأصمعي : — ومن ألفاظ العرب ألفاظا تتأفر ، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه ، فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر

وليس قرب قبر حرب قبر

وقال أبو عثمان : ولما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتبع ولا يتلجلج ، وقيل لهم : إن ذلك

إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن صدقوا ذلك (٣٧) .

والجاحظ - هنا - يتنبه إلى ضرورة ملائمة حروف الكلمة ، بعضها لبعض ، كما يتنبه إلى ضرورة ملائمة الكلمات بعضها لبعض ، قال : (وكذلك حروف الكلمات ، وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة مُلساء ولينة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ، ومتنافرة مستكرهة ، تشق على اللسان وتكده ، والأخرى تراها سهلة لينة ، ورطبة مواتية ، سلسلة النظام ، خفيفة على اللسان ، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد) (٣٨) .

ولعل من أروع ما وصف به الكلام البليغ الجميل ما جاء في هذه الفقرات من قوله : (لينة المعاطف) . (رطبة مواتية) ، وختامه هذه الأوصاف بأن الكلمة تكون من السهولة والليونة والالتئام كأنها حرف واحد ، وأن البيت يكون - لذلك - كأنه كلمة واحدة ، وليس أدق ولا أوجز من هذه الأوصاف للكلام البليغ .

ويبدو أن التأفر كان ثقيلا على أسماع المتذوقين للشعر ، ولذلك نجدهم قد تنبهوا له من قديم ، وسخروا منه أشد السخرية .

جاء رجل إلى خلف الأحمر ، وقال : إني قلت شعرا ، أحببت أن أعرضه عليك لتصدقني عنه ، فقال خلف : هات ، فأنشد الرجل :

رقد النوى حتى إذا انتبه الهوى

بعث النوى بالبين والترحال

ماللنوى ، جد النوى ، قطع النوى

بالوصل بين ميامن وشمال

(٣٨) البيان ج ١ ص ٦٧ .

(٣٦) البيان ج ١ ص ٦٦ .

(٣٧) البيان ج ١ ص ٦٥ ، والحيوان ج ٦ ص ٢٠٧ .



عشية آرام الكناس (رميم)
 رميم التي قالت لجارات بيتها
 ضمنت لكم ألا يزال بهيم
 ألا رب يوم لو رمتني رميتها
 ولكن عهدي بالنضال قديم

فهذا الشعر في نظره أجود الشعر ، وكأنه قد
 أفرغ إفراغاً واحداً ، وسبك سبكاً واحداً ، وهو
 يجري على اللسان في سهولة ويسر .

أما الكلمات في الشعر المتناثر الذي لا تقع
 الكلمة فيه إلى جنب أختها موقعا مرضيا موافقا ،
 فهي (أولاد علة)^(٤١) ، والشعر نفسه (كبر
 الكيش) ، وعر الكيش - كما يقول - يقع
 متفرقا ، وغير مؤتلف ولا متجاور ، ويذكر قول
 بنت الخطيئة لأبيها : (تركت قوما كراما ،
 ونزلت في بني كليب بعر الكيش) فعابهم بتفرق
 بيوتهم .

وكلمة (قران) التي استعملها الجاحظ في
 الشعر المتلاحم الأجزاء كلمة قديمة ، وردت في
 شعر أنشده ابن الأعرابي ، وهو :
 وبات يدرس شعر لا قران له

قد كان نقحه حولا فما زادا
 كما وردت في جواب رؤية بن العجاج لرجل
 قال له : أن عقبة ابنك أنشدني رجزا أعجبني ،
 فقال رؤية : (إنه يقول ، لو كان لشعره
 قران)^(٤٢) ، والقران التشابه والموافقة .

فقال له خلف : دع قولي ، واحذر الشاة ،
 فو الله . لكن ظفرت بهذا البيت لتجعلته بعرا ، على
 أني ما ظننت بك هذا كله)^(٣٩) .

وهذا الشعر في ذاته خفيف ، ولكن ذكر كلمة
 واحدة فيه خمس مرات جعله مستكرها .

ومثل ذلك ما روى أن اسحق الموصلي أنشد
 الأصمعي قوله في غضب المأمون عليه :

ياسرحة الماء قد سدت موارده

أما إليك طريق غير مسدود

لحائم حام حتى لا حيام له

مملأ عن طريق الماء مطرود

فقال الأصمعي : أحسنت في الشعر ، غير أن
 هذه الحاءات لو اجتمعت في آية الكرسي
 لعابؤها^(٤٠) .

القران :

وهذا التلاؤم بين الكلمات هو الذي يشيد به
 الجاحظ في كثير من كتبه ، فهو يمثل للشعر الذي
 لا تتباين ألفاظه ، وتتناثر أجزاؤه بأبيات منها قول
 الثقفي :

من كان ذا عضد يدرك ظلامته

أن الذليل الذي ليست له عضد

تنبو يدها إذا ما قل ناصره

ويأنف الضيم أن أثرى له عدد

ومنها (وهي لأبي حية التميمي) :

رمتني وستر الله بيني وبينها

(٤١) أولاد العلة - بفتح العين - بنو رجل واحد من أمهات

شني .

(٤٢) البيان ج ١ ص ٦٨ .

(٣٩) الموشح للمرزباني - توفي خلف في حدود سنة ١٨٠ هـ .

(٤٠) المصدر السابق ص ٣٠٠ .

الإيجاز :

أشار الجاحظ إلى الإيجاز في أول باب « البيان » حين جعل يبين أسباب وضوح الدلالة التي هي البيان ، فذكر منها (حسن الاختصار) ، ثم أكثر في كتبه من الحديث عنه .

ومن المناسبات التي تحدث فيها عن الإيجاز روايته لكلمة على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - : (قيمة كل امرئ ما يحسن) ، فقد بالغ في امتداحها ، ثم قال (وأحسن الكلام ما كان يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه) ثم يقول في نفس الموضوع : (فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة) (٤٣) .

كل هذه أوصاف لكلمة سيدنا علي هذه الموجزة ، بل يبلغ الجاحظ في إمتداحها مدى المدح إذ يقول : (فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية ، ومجزئة مغنية ، بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية ، وغير مقصرة عن الغاية) .

وهو لا يمتدح الإيجاز إلا إذا كان مغنياً ، والإغناء ، أن يكون المعنى واضحاً ، ولذلك عاب في موضوع آخر الإيجاز في كلمة (صحار العبدى) .

روي أن معاوية بن أبي سفيان قال لصحار -

وكان خطيباً بليغاً - ما تعدون البلاغة فيكم ؟ - يريد قبيلة عبد القيس - فقال : الإيجاز . قال معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صحار : أن تحيب فلا تبطىء ، وتقول فلا تخطيء . فقال معاوية : أو كذلك تقول يا صحار ؟ قال : أقلني ، يا أمير المؤمنين . ألا تبطىء ولا تخطيء (٤٤) .

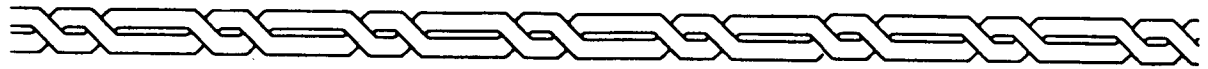
فمعاوية يسأل عن البلاغة ، وهو لا يعني طبعاً المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة ، وإنما يعني حسن البيان ، وجمال القول ، وصحار يجيبه بأنها الإيجاز ، ثم يشرح الإيجاز بكلمتين فيهما بعض ما يستغني عنه لأداء المعنى ، ويلحظ معاوية ذلك ، فينكر على صحار ، أو لعله يريد أن يستثير تعجبه من صنيعه في مخالفة (التطبيق للقاعدة) ، ويتنبه صحار ، ويحذف الفضول من كلامه ، ويحجب إجابة لا يمكن اختصارها .

ووجه ذلك أن كلمة (لا تبطىء) تتضمن كلمة (تحيب) ، وكلمة (لا تخطيء) تتضمن كلمة (القول) ، فالكلمتان الأوليان مستغني عنهما في العبارة .

هذا ما ألمح إليه معاوية ، واستجاب له صحار البليغ ، ولكن الجاحظ لا يرتضي هذا منهما ، إذ أن الكلمة الأولى لا تنبئ - عنده - عن الثانية في كل من الجملتين ، قال : (فلو أن سائلاً سأل عن الإيجاز ، فقلت : لا تخطيء ولا تبطىء ، وبحضرتك خالد بن صفوان لما عرف بالبدية ، وعند أول وهلة أن قولك : (لا تخطيء)

(٤٣) البيان ج ١ ص ٨٣ .

(٤٤) البيان ج ١ ص ٩٦ .



متضمن (بالقول) ، وقولك : (لا تبطىء) .
متضمن (بالجواب) ، وهذا حديث - كما
تري - آثروه ورضوه (٤٥) .

وكأن الجاحظ يتهيب القطع بأن لا نخطيء
ليس متضمنا بالقول ، فهو لا يفهم بالبديهة وكأنه
يفهم بالتأمل ، وإمعان النظر ، ومن هنا نقرر أن
الجاحظ لا يرى الإيجاز الذي يحتاج إلى التأمل في
فهم المعنى ، وهذا من شغفه الزائد بالوضوح .
وربما كان تعقيبه على صنيع هذين البليغين :
معاوية وصحار ناشئا عن رأيه في الإيجاز ، فقد
كان له موقف مشابه من أستاذه النظام .

فقد عرف النظام الإيجاز تعريفا يكاد يكون
مأخوذا من صنيع العبدى ، فقد سئل :
ما الاختصار ؟ فقال : الذي اختصاره فساد .
ولا يعجب هذا التعريف أبا عثمان ، فبعد أن
يسوي بين الإيجاز والاختصار يقول :

(والإيجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف
واللفظ ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه
فيما يسع بطن طومار فقد أوجز ، وكذلك
الإطالة ، وإنما ينبغي أن يحذف ما لا يكون سبباً
لإغلاقه ، ولا يردده وهو يكتفي في الإفهام
بسُطره ، فما فضل عن المقدار فهو الخطل) (٤٦) .

وهو يضع رسماً للإيجاز هو الذي لا يزال
متداولاً بين علماء البلاغة .

فقد ذكر أنه وضع كتاباً جمع فيه آيات من

القرآن يعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف ،
قال (فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز ، والجمع
للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ، ثم يذكر آيتين
من هذه الآيات :

قوله تعالى في وصف خمر أهل الجنة :
﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ (٤٧) قال بعد
يايراد الآية : جمع بهاتين الكلمتين جميع عيوب خمر
الدنيا .

وقوله - عز وجل - حين ذكر فاكهة أهل
الجنة : ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ (٤٨) .

قال بعد إيراد الآية : جمع بهاتين الكلمتين جميع
تلك المعاني .

وله من ذلك شواهد كثيرة أوردها في
كتبه (٤٩) .

وواضح أن مازاد عن توفية المعنى ليس
مقبولاً ، إلا أن يكون في موضعه ، فعنده كما عند
جميع البلغاء أن للإطالة مواضع ، وللإيجاز
مواضع . قال :

ومن مواضع الإطالة الخطبة في الصلح بين
العشائر ، وإنشاد الشر بين السماطين في مدح
الملوك ، قال : (وللإطالة موضع ، وليس ذلك
بخطل ، وللإقلال موضع ، وليس ذلك عجز) (٥٠) .

لكن إذا لم تُدْعُ للإطالة داع فهي مذمومة .
فقد أورد هذه القصة : (قيل لإياد بن معاوية :

(٤٩) انظر البيان ج ١ . ص ١٤٩ وما بعدها ، ج ٢ . ص ٣٣

والحيوان ج ٣ . ص ٨٦ .

(٥٠) الحيوان ج ١ . ص ٩٣ .

(٤٥) الحيوان ج ١ . ص ٩١ .

(٤٦) الحيوان ج ١ . ص ٩١ . والطومار : الصحيفة .

(٤٧) سورة الواقعة : الآية ١٩ .

(٤٨) سورة الواقعة : الآية ٣٣ .

وأكثر بديعا ، ومروان آخذ بمسالك الأوائل (٥٣) .

وهذا الحكم - فيما أرى - غريب من الأصمعي أن يفضل بشارا لأنه لم يسلك مسلك الأوائل على مروان الذي سلك مسلكهم ، وأشد غرابة أنه قال في تفضيل بشارا : (أكثرهم بديعا) ، ولم يقل : أحسنهم بديعا ، ذلك أن كثرة البديع هي التي أسقطت أبا تمام في نظر الرواة من أمثال الأصمعي ، وفي نظر النقاد الذين يؤثرون قديم الشعر .

ولكن يبدو أنه يريد أن من يسلك مسلك الأوائل ، ولا يحسن إحسانهم يتخلف عمن ينفرد بطريقة ، ويحسن فيها .

ويعني بكثرة البديع عند بشار الكثرة النسبية ، لا الكثرة المجاوزة المسرفة ، كما فعل أبو تمام فيما بعد ، وأن البديع في ذاته كان حسنا إلى عهد الأصمعي ، فكثرته كثرة في الإحسان ، ثم تحول في شعر أبي تمام إلى نوع من التكلف ، والاعراب في الصنعة .

وكذلك وردت كلمة (البديع) في حكم أدبي للعتابي ، سنذكره قريبا . ويقال إن أول من أطلق هذا اللقب مسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨ هـ ، وكان قبله يسمى (باللطيف) (٥٤) .

ومسلم (هو أول من وسع البديع ، لأن بشار ابن برد أول من جاء به ، ثم جاء مسلم فحشا به شعره ، ثم جاء أبو تمام فأفرط فيه ، وتجاوز المقدار) (٥٥) .

ما فيك من عيب إلا كثرة الكلام . قال : فتسمعون صوابا أم خطأ ؟ قالوا : بل نسمع صوابا . قال : فالزيادة من الخير خير) .

ثم علق عليها ، فقال : (وليس كما قال : للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن قدرة الاحتمال ، ودعا إلى الاستقلال والملال فذلك هو الفاضل ، وهو الهذر ، وهو الخطل ، وهو الإسهام الذي سمعت الحكماء يعيونه) (٥٦) . ولحات الجاحظ في الإيجاز كانت أساسا لباب كبير في البلاغة العربية ، هو : (الإيجاز والإطناب والمساواة) .

والتقسيم الذي وقف عنده علم المعاني من تنويع الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف مصدره كتب الجاحظ ، أو على الأقل هي من أهم مصادره .

البديع :

لم يكن الجاحظ أول من استعمل لفظه البديع ، فإن اللفظ كان معروفا قبله ، كما لم يكن أول ناقد فضل شاعرا على غيره لما في شعره من البديع .

فقد سئل الأصمعي (٥٢) عن بشار بن برد ، ومروان بن أبي حفصة : أيهما أشعر فأجاب : بشار أشعرهما ، فلما سئل عن سبب تفضيله بشارا قال : لأن مروان سلك طريقا كثر سلاكه ، فلم يلحق بمن تقدمه ، وأن بشارا سلك طريقا لم يسلكه أحد فأنفرد به ، وأحسن فيه ، وهو أكثر فنون الشعر ، وأقوى على التصرف ، وأغزر ،

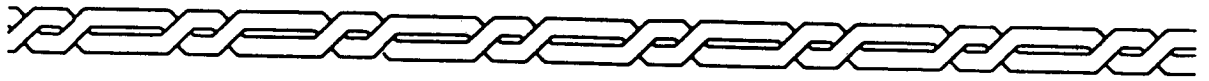
(٥٤) مقدمة ناشر كتاب (البديع) لابن المعتز ص ٨ .

(٥٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ .

(٥١) البيان ج ١ . ص ٩٩ .

(٥٢) عبد الملك بن قريب المتوفى سنة ٢١٢ هـ .

(٥٣) الموشح للمرزباني ص ٢٥١ .



يقول : وهذا الذي تسميه البديع يقصد ما كان يقصدونه من تشبيه ومجاز وما إليهما من أنواع التفنن في الأداء ، والمحسنات البديعية .

وهو كلام واسع (أنواع التفنن في الأداء ، والمحسنات البديعية) . فما أظن أحدا يظن أن الرواة كانوا يطلقون لفظ البديع على هذا المعنى الشامل الواسع - ولو قال المحسنات البديعية التي عرفت في زمانهم لكان أقرب إلى الصواب .

ولعل هؤلاء الباحثين الثلاثة اغتروا بما قاله القدماء في البديع مثل ابن المعتز وقدامة ، وأبي هلال العسكري .

ولكن الذي يمعن النظر في صنيع الجاحظ لا يجد ما يؤيد ما ذهبوا إليه ، فكل الأمثلة التي ذكرها ، وقرن بها كلمة البديع لا تؤيد أن الجاحظ كان يفهم البديع على نحو ما كان يفهمه غيره ممن ألفوا في البديع بعده بقليل ، أو من باحثينا المعاصرين .

روى الجاحظ هذه الأبيات لسودة بن رملة :

أن الألى حانت بفلج دماؤهم
هم القوم كل القوم يا أم خالد
هم ساعد الدهر الذي يتقى به
وما خير كف لا تنوء بساعد
أسود سرى لاقت أسود خفيّة
تساقوا على حرد دماء الأساود
ثم علق عليها : قوله : (هم ساعد الدهر) إنما هو مثل ، وهذا الذي تسميه الرواة (البديع) ،

وقد عدد الجاحظ جماعة من شعراء البديع ، وذهب إلى أن البديع مقصور على العرب ، وأحيانا يأتي بأمثلة لهذا البديع .

ولكن ما المراد به عند الجاحظ ؟

يرى بعض الكاتبين أن المراد بالبديع عند الجاحظ : (فنون التعبير المختلفة من مجاز ، وتشبيه ، وكناية ، وغيرها) .

ويرى باحث آخر أن البديع عند الجاحظ وصف للمعاني ، والصور الغريبة الظرفية ، كالاستعارة ، والتشبيه ، وغيرها من الصور البلاغية الأخرى^(٥٧) .

ويرى باحث ثالث أن الجاحظ كان يريد بالبديع الكلام الذي يتضمن المثل - وتدخل في ذلك الأمثال - ، ثم يلاحظ أن الأبيات التي يستحسنها الجاحظ تشتمل على نكت بلاغية أخرى ، كالتجنيس ، والطباق ، والسجع ، والازدواج ، والتشبيه ، والإطناب^(٥٨) .

ويزيد الكاتب الأول من هؤلاء الثلاثة (الدكتور سيد نوفل) رأيه إيضاحاً فيقول : أطلق الرواة اسم البديع لذلك العهد اطلاقاً عاماً على المستحدث من الألوان البلاغية من تشبيه ، ومجاز ، وما إليهما من أنواع التفنن في الأداء ، والمحسنات البديعية .

وهو - وإن لم ينسب هذا الرأي للجاحظ - جعل هذا التفسير للبديع هو مدلوله في ذلك العهد ، أي عهد الجاحظ ، وكأن الجاحظ حين

(٥٨) بلاغة أرسطو للدكتور إبراهيم سلامة ص ٨٧ .

(٥٩) البلاغة العربية في دور نشأتها ص ١٦٠ .

(٥٦) البلاغة العربية في دور نشأتها ص ٥١ .

(٥٧) بلاغة أرسطو للدكتور أحمد مكلوب ص ٨٥ .

البديع ، باستثناء نص واحد لا يختلف عن هذه النصوص في موضع الشاهد منه .

وفي هذه النصوص نلاحظ أن نظر الجاحظ كان متوجها إلى نوع خاص من فنون البيان ، هو الذي يمثل له بمثل (ساعد الدهر) . (موسي الله) . (ساعد الله) . (كاهل الدهر) . (جبل الصبا) . (أهاضيب الشباب) . (قلوب الحمد) . ، وفي رواية ديوان الحماسة لأي تمام . (قلوب الحرب) .

وهذا الأسلوب - في كلها - يطلق عليه عند علماء البيان مصطلح واحد ، هو : (الاستعارة المكنية) .

فهل كان الجاحظ يفهم أن البديع يطلق على هذا النوع خاصة ؟ إن عبارته التي علق بها على الشاهد الأول : (وهذا الذي تسميه الرواة البديع) تحملنا على أن نجيب عن هذا السؤال (بنعم) .

ويؤيد إجابتنا هذه ما وجدناه من الأمثلة السابقة للجاحظ :

عن أحمد بن خلاد عن أييه ، قال لي العتاني - وتجارينا البديع من شعره ، وقول أيي نواس :

لما بدا ثعلب الصدود لنا

وقد قال الراعي :

هم كاهل الدهر الذي يتقى به

ومنكبه إن كان للدهر منكب

وقد جاء في الحديث : (موسى الله أحد ، وساعد الله أسد) (٦٠) .

وذكر في موضع آخر قول الراجز في (البديع المحمود) على حد قوله :

قد كنت اذ جبل صباك مُدْمَش

وإذ أهاضيب الشباب تبغش

قال : ومن هذا (البديع المستحسن) قول

حجر بن خالد بن مرثد :

سمعت بفضل الفاعلين فلم أجد

كفعل أي قابوس حزمًا ونائلا

يساق الغمام الغر من كل بلدة

إليك ، فأضحى حول بيتك نازلا

فأصبح منه كل وادٍ حللتـه

وإن كان قد خوى المرائع سائلا

فإن أنت تهلك يهلك الباع والندى

وتضحى قلوب الحمد جرباء حائلا

فلا ملِّك ما يبلغنك سعيه

ولا سوقة ما يمدحنك باطلا (٦٢)

هذه هي النصوص - فيما وقفت عليه من

كتب الجاحظ - التي أوردها مقترنة باسم

(٦٢) أبو قابوس : هو النعمان بن المنذر . خوى : سقط .

المرائع : النجوم التي يكون بها المطر ، والمراد : لو نزلت

مكانا محروما من الغيث لأفضت عليه الخير . الباع :

الشرف . القلوب : الناقة الشابة .

(٦٠) البيان والتبيين ج ٤ . ص ٥٥ .

(٦١) الحيوان ج ٣ . ص ٥٨ .

مدمش : أصلها مدمج بمعنى محكم ، وقد أبدل الشين من الجيم

لمكان الروى - كما في اللسان - . والبغشة : المطرة

الضعيفة ، وقد بغشت السماء كمنع ، والصبي يبغش ،

وذلك إذا أجهد إليك (القاموس) .

والذى نفهمه من هذه العبارة أن المراد بالبديع هو - أيضا - الاستعارة المكنية ، لأمرين :

الأول :

أن أبا تمام - فعلا - أسرف في اصطناع كثير من أساليب هذه الاستعارة ، وهي التي كانت - عند النقاد القدماء - موضع ذمه .

أما الجناس والتطبيق فقد بالغ فيهما ، ولكن لم يكونا موضع ذم كثير كما كانت هذه الاستعارة .

الثاني :

أن الإحالة التي ذكرها (الكوفي) إنما تكون في المعاني ، ويبعد أن تكون في التجنيس أو المطابقة .

وقد سمي الجاحظ هذه العبارة : (هم ساعد الدهر) . (المثل) ، وجعل (المثل) هو البديع .

ولو تتبعنا هذه الكلمة (المثل) في كتب الجاحظ لوجدناه يقصد بها (المجاز) في مثل قوله عن نار الحرب : أنها نار على طريق المثل ، لا على طريق الحقيقة (٦٥) .

فمقابلته (المثل) بالحقيقة تشعر بأنه يريد به المجاز . والكلمة محتملة لأن تكون من قبيل الاستعارة المكنية ، وهو الظاهر ، ولأن تكون من قبيل الاستعارة التصريحية إذا كان يريد تشبيه شدة الحرب بالنار ، من قبيل إضافة المشبه به للمشبه ،

أرسلت كلب الوصال في طلبه جاء به ، والجليل يعتله .

منقلباً رأسه على عقبه

فقال : والله ، إنه لشاعر ، ولكن تمادى به حب البديع حتى أغرق فيه (٦٣) .

فالعناني يرى صنيع أبي نواس في هذين البيتين إغراقاً منه في البديع ، إذ أنه جاء باستعارتين غير سائغتين : (ثعلب الصدود) و (كلب الوصال) .

وربما صح أن نفهم هنا نوعاً آخر من البديع ، وهو الطباق ، وإذا شئنا قلنا المقابلة بين ثعلب الصدود و كلب الوصال ، وبين الرأس والذنب ، ولكن الشيء المؤكد هو الاستعارة المكنية .

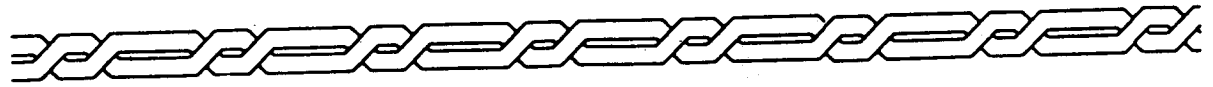
أما عبارة الأصمعي التي ذكرناها في المفاضلة بين بشار ومروان ، والتي تجعل بشاراً مبتدعاً ، ومروان متبعاً للأوائل ، فلنأخذها لم تحدد نوع الابتداع في شعر بشار ، فإن كان الأمر على قياس ما رأينا عند العناني والجاحظ فإن ابتداع بشار - حينئذ - يكون في هذين النوعين من التصوير الأدبي ، وإن كنا نعرف أنهما قديمان في الشعر العربي ، وإن كانت أمثلة الاستعارة المكنية على هذا النحو الذي ذكره أبو نواس نادرة في الشعر القديم ، أو معدومة .

وقد روى عن حذيفة بن محمد الطائي الكوفي - وكان من العلماء - قوله : أبو تمام يريد البديع ، فيخرج إلى المحال (٦٤) .

(٦٥) الحيوان ج ٥ . ص ٧٤ . ط . ساسي .

(٦٣) الموشع ص ٢٨٦ .

(٦٤) الموشع ص ٣٠٤ .



وإطلاق المثل على الاستعارة التصريحية ليس غريبا على الجاحظ .

فمن ذلك قوله من رسالة في استنجاز الوعد :
(قد شاع الخير ، وسار المثل بقولهم : اطلبوا الحاجات من حسان الوجوه ، فإن كان الوجه إنما وقع على الوجه الذى فيه الناظر والسامع والشام والذائق ، إذ كان حسنا جميلا ، وعتيقا بهيا . فوجهك الذى لا يحيل على أحد كماله ، ولا يخطيء حواله ، وإن كان ذكر الوجه إنما يقع على حسن وجه المطلب وجماله ، على جهة الرغبة ، وإن كان ذلك طريق المثل ، وعلى سبيل اللفظ المشتق من اللفظ ، والفرع المأخوذ من الأصل ، فوجه المطلب إليك أفضل الوجوه وأسناها ، وأصوبها وأرضاها ، وهو المنهج الفسيح ، والمتجر الرياح ، وجماله ظاهر ، ونفعه حاضر ، وخيره غامر) (٦٦) .

فقد فسر الوجه هنا بالمطلب على جهة (المثل) كأنه يقول : إن استعمال الوجه في مكان المطلب استعارة تصريحية - على ما اصطلاح عليه المتأخرون - .

وكذلك وصف الاستعارة التصريحية بالمثل في موضع آخر .

روى أن الشاعر : (الأقيل القيني) أغضب الحجاج بن يوسف بشعر قاله فيه . فتوعدده الحجاج ، فاستجار بقبر مروان بن الحكم ،

فأجاره عبد الملك ، وكتب للحجاج ألا يعرض له ، ولكن قومه حذروه ، فطرح الكتاب ، وهرب ، وقال أبياتا قدم لها الجاحظ بقوله : (وما يضربون به المثل ، بالحيات في دواهي الأمور ، كقول الأقيل القيني :

لقد علمت وخير القول أنفعه
أن انطلاقي إلى الحجاج تفرير
لئن ذهبت إلى الحجاج يقتلني
أني لأحمق من تُحدى به العير
مستحقبا صحفا تدمي طوابعها
وفي الصحائف حيّات مناكير (٦٧)

ومرة ثالثة يذكر ثلاثة شواهد في كل منها استعيرت النار ، يقول : (ويذكرون نارا أخرى ، وهي على طريق المثل لا الحقيقة ، كقولهم في نار الحرب ، قال ابن ميادة :

يداه يد تنهل بالخير والندى
وأخرى شديد بالأعادي ضريها
وناراه : نار نار كل مدفع
وأخرى يصيب المجرمين سعيها

ويردف هذا الشاهد بشاهدين آخرين ، والذي يعيننا هنا مقابلته المثل بالحقيقة مما يؤكد أنه يقصد بالمثل المجاز ، والشواهد كلها تؤيد ذلك (٦٨) .

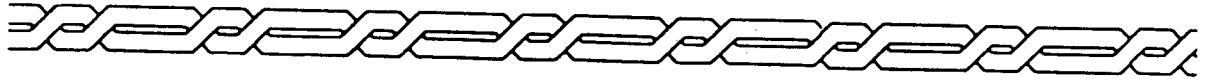
وهناك لون آخر من المجاز هو ما سماه المتأخرون : (المجاز المرسل) يمكن أن نجعله نوعا ثالثا من بديع الجاحظ .

وظاهر أن الاستعارة هنا في كلمة (الحيات)

(٦٨) الحيوان ج ٥ ص ١٣٣ ، ١٣٤ . والضرب : الشدة . والمدفع : الفقير .

(٦٦) رسائل الجاحظ (هامش الكامل) ج ٢ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٦٧) الحيوان ج ٤ ص ٢٥٣ . واستحقب الشيء : حمله في مؤخرة الرحل . والطواع : جمع طابع يفتح الباء ، وكسرها ، وهو الخاتم الذى نختم به الرسائل ونحوها .



موضع : (والناس يقولون في الابل أقاويل عجيبة : فمنهم من يزعم أن فيها عرقا من سفاد الجن ، وذهبوا إلى الحديث : أنهم إنما كرهوا الصلاة في أعطان الإبل لأنها خلقت من أعفان الشياطين ، فجعلوا المثل والمجاز على غير جهته (٧١) .

ثم ساق شواهد فيها التشبيه بالشیطان ، والمجاز فيه ، إلى أن قال : (وقد نبى عن الصلاة عند غيبوبة الشمس ، وعند طلوع القرص إلى أن يتتام ذلك ، وفي الحديث : (أنها تطلع بين قرني الشيطان) (٧٢) .

وواضح أن هناك فنا رابعا من فنون البيان يطلق عليه الجاحظ لفظ (المثل) ، ذلك هو : (التشبيه) .

ومن ذلك ما قاله في قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا »

وقد ذكر الآيتين في معرض التدليل على فضيلة علم الكلام . ذلك أنه لا ينفع في باب من القول زجل ليس له علم بالكلام ، ولو كان أعلم الناس باللغة هكذا قال .

ذلك أن الجاحظ حين ذكره في قوله تعالى عن النحل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ (٦٩) فقال : فالعسل ليس بشراب ، وإنما يحول بالماء شراباً ، أو بالماء نبيذاً ، فسماه - كما ترى - شراباً ، إذ كان يجيء منه شراب ، وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا جاءت السماء اليوم بأمر عظيم ، وقد قال الشاعر .

إذا نزل السماء بأرض قوم
رعيناه وإن كانوا غصابا
فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط .

حين ذكر الجاحظ ذلك أتبعه بقوله : (وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم ، وبه ، وبأشباهه اتسعت) (٧٠) .

وهذه الكلمات تشبه كل الشبه كلماته في امتداح البديع الذي به فاقت لغة العرب غيرها من اللغات - كما يقول - فلا غزو كان هذا المجاز أحد أنواع البديع ، وإن لم يعده أحد بعده من البديع . وكلمة الجاحظ : (وبه وبأشباهه اتسعت) تدل على أنه يعرف للمجاز فنونا في هذا النوع ، وله أشباه ، وكلها سر اتساع العرب ، وموضع فخرها .

على أن الجاحظ قد يقرن المثل بالمجاز ، ويبدو لي أنهما من عطف المترادفين قال في

فإنه أراد أنها على أخلاق الشياطين ، وحقيقة الاعنان : النواحي . قال ابن الأثير : كأنه قال : كأنها لكثرة آفاتنا من نواحي الشيطان في أخلاقها وطبائعها .

(٧٣) سورة الأعراف . الآيتان ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٦٩) من الآية ٦٩ من سورة النحل .

(٧٠) الحيوان ج ٥ ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

(٧١) الحيوان ج ١ ص ١٥٢ .

(٧٢) الحيوان ج ١ ص ١٥٣ . وفي الهامش : (قال ابن منظور :

المسلمين والعرب ، وكل من لقيناه على ضرب
المثل بقبح الشيطان دليل في الحقيقة على أنه أقبح من
كل قبيح ، والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين قد
ثبت في طبائعهم بغاية التشبث (٧٥) .

وقد ذكر هذا الجواب في موضع آخر ، وزاد
فيه ، : (ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع
جميع الأمم استقباح صور الشيطان ،
واستسماجه ، وكراهته ، وأجرى على السنة
جميعهم ضرب المثل في ذلك - رجع بالايحاش
والتنفير ، وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله
في طباع الأولين والآخرين ، وعند جميع
الأمم) (٧٦) .

ونلاحظ أن الجاحظ في رده كرر كلمة المثل ،
مما يدل على أن إطلاقه على التشبيه أمر مستقر في
خاطره .

ومن المواضع التي أطلق فيها كلمة المثل على
التشبيه : (وهجا دريد بن الصمة رجلا فجعل
البيضة الفاسدة مثلاً له ، ثم ألحق النسر بأحرار
الطير وكرامها ، وما رأيتهم يعرفون ذلك للنسر ،
فقال :

وهل أنت إلا بيضة مات فرخها
ثوت في سلوخ الطير في بلد قفر
حواها بفثا شر طير علمتها
وسلاء ليست من عقاب ولا نسر

ودلل على ذلك بأن معترضين اعترضوا على
هذه الآية : (فزعموا أن هذا (المثل) لا يجوز أن
يضر به لهذا المذكور في صدر هذا الكلام ، فما
يشبهه حال من أعطى شيئاً فلم يقبله بالكلب الذي
أن حملت عليه نبح ، وولى ذاهبا ، وإن تركته شد
عليك ونبح) .

فلاعتراض هنا على التشبيه ، وقد سماه الجاحظ
المثل ، فالقياس يصحح لنا أن الجاحظ كان يعد
التشبيه فنا من فنون البديع .

وربما وقع في وهم وإهم أن الجاحظ يطلق لفظ
المثل على هذا النوع الخاص من التشبيه ، وهو
الذي شبه فيه حال بحال ، وخاصة أن لفظ المثل
ورد هنا .

ولكن في الحقيقة أن الجاحظ يطلق المثل على
أسلوب التشبيه بعامة ، فقد ذكر قوله تعالى :
« طلعتها كأنه رعوس الشياطين » ، وذكر معه
اعتراضاً ، وهو قولهم : (كيف يضر المثل
بشيء لم نره فتوهمه ؟) .

ولقد كان الاعتراض على هذه الآية السبب في
وضع أبي عبيدة معمر بن المثنى كتابه :
(المجاز) ، ونذكر هنا - قياماً بحق الآية والتشبيه
فيها - رد الجاحظ على أهل الظن والخلاف .

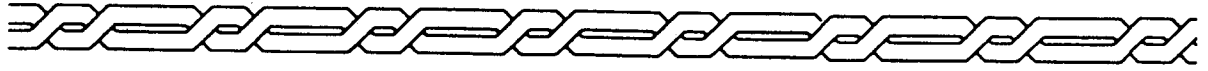
قال : (قلنا وإن كنا نحن لم نر شيطاناً قط ،
ولا صور رعوسها لنا صادق بيده .. ففي إجماع

(٧٧) المصدر السابق ج ٤ . ص ٣٥٨ . [سلوخ : جمع سلخ
بالفتح ، وهو ما يسلخه الطائر من ريشه فهو يبطن به عشه
ليضع فيه البيض . التلاء : كرمات : ضرب من الطير غير
طويل الرجلين] .

(٧٤) الحيوان ج ٢ . ص ١٦ . وقد أجاب الجاحظ هناك عن هذا
الزعم بما يبطله .

(٧٥) الحيوان ج ٦ . ص ٢١٣ .

(٧٦) المصدر السابق ج ٤ . ص ٣٩ .



وكذلك قال : (باب . من ضرب المثل للرجل الداهية ، وللحي الممتع بالحية) .

قال ذو الأصبع :

عذير الحي من عذونا
ن كانوا حية الأرض (٧٨) .

وكذلك يصف التشبيه بالمثل مع حذف المشبه ، فقد ذكر البيت :

أسود شرى لاقت أسود خفية
تساقوا على حرد دماء الأساود
ثم قال : (ضرب المثل بجنسين من الأسود ، إذ كانا عنده الغاية في الشدة والهول ، فلم يقنع بذلك حتى رد ذلك كله إلى سموم الحيات) (٧٩) .

كذلك - كما سبق - يطلق المثل على التشبيه معه الأداة ، ومن ذلك قوله : (ويقال في مثل : إذا مدحوا الخف اللطيف والقدم اللطيفة ، قالوا : كأنه لسان حية (٨٠) .

ويذكر كثيرا ضروبا من التشابيه ولا يقرنها بلفظ المثل .

هذه هي الأنواع التي يمكن أن نقول إن الجاحظ يعدها أنواع البديع .

أما ما ذهب إليه كتابنا المعاصرون من أن الجاحظ كان يطلق البديع على المحسنات البديعية ، وتخصيصهم (الجنس والطباق) بالذات ، فمع أنه ليس في عبارات الجاحظ التي كدنا نستقصيها

ما يدل على هذا الاطلاق نرى أن ذلك لا يتفق مع قوله أن البديع مقصور على العربية ، وأنه سر تفوقها على اللغات . فهل فاقت العربية غيرها بالجناس والطباق ، والمذهب الكلامي الذي يذكر ابن المعتز أنه من استخراجات الجاحظ ، وأنه تكلف ؟ .

ثم . لو كان الجاحظ يفهم البديع على هذا الوجه لكان معنى ذلك أن المحسنات البديعية كانت شائعة في العربية مع أن تسمية الرواة لها بديعاً يشعر بأنها طارئة ، وذلك ما يؤيده قول ابن المعتز : (وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً) (٨١) .

فكيف يكون مفخر العرب في لغتهم ، وتفوق به غيرها ، وهو إنما يستحسن إذا أتى نادراً ؟ .

أستطيع أن أؤكد - استناداً إلى هذا النص وغيره - أن بديع ابن المعتز غير بديع الجاحظ ، وإلا كان لنا أن نحمل كلام أحدهما على المبالغة والاتساع في الدعوى .

أكثر الجاحظ من شواهد المجاز ، وفرق بينه وبين التشبيه - في الغالب - ، فهو يعرض للمجاز في كلمة (الأكل) ، فبعد أن يذكر أن نار المصباح تأكل الدهن ، يقول : (وقد يقولون ذلك - أيضاً - على سبيل المثل ، وعلى

[خفية : أجمة في سواد الكوفة . والحرد : الغضب .

(٨٠) الحيوان ج ٤ . ص ٢٥٠ .

(٨١) كتاب البديع ص ١٦ .

(٧٨) الحيوان ج ٤ . ص ٢٣٣ .

(٧٩) الحيوان ج ٤ . ص ٢٤٥ . [شرى : جبل بنجد أوتامة

مشهور بكثرة السباع .

وأنه ليتنبه إلى لطائف فيه ، فهو يرى أنه حقيقة ، ولا يشبه المجاز في المبالغة يقول : إن الشعراء والبلغاء والعلماء يشبهون الانسان بالقمر وبالشمس ، وبأشياء أخرى ، ولكنهم : (لا يخرجون بهذه المعاني ... إلى هذه الحدود ، وهذه الأسماء) (٨٧) .

لكنه قد يخلط بين التشبيه والاستعارة ، يقول : (وكذلك يشبه التمام والمداخل والدسيس بالقنفذ لخروجه بالليل دون النهار ، ولاحتياله للأفاعي . قال عبدة بن الطبيب :

أعصوا الذي يلقي القنافذ بينكم
مُتَنَصِّحًا ، وهو السَّمَامُ الأنْعَمُ
يزجي عقاربه ليعث بينكم
حربا كما بعث العروق الأخدعُ
حرّان لا يشفي غليل فؤاده
عسل بماء في الإناء مُشْعَشَعُ
لا تأمنوا قومنا يشيب صيْهُم
بين القوابل بالعداوة يُنْشَعُ
ثم قال عبدة بن الطبيب في صلة الأبيات التي ذكر فيها القنفذ والتميمة .

أن الذين ترونها أخواتكم
يشفي صداع رؤوسهم أن تصرعوا
قوم إذا دمس الظلام عليهم
جدعوا قنافذ بالتميمة تمزغ (٨٨) .

الاشتقاق ، وعلى التشبيه) ، ثم يذكر أمثلة بعد ذلك للاستعارة التصريحية ، من مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ﴾ (٨٢) وقوله تعالى : (أَكَلُونَ لِلْسَّحْتِ) (٨٣) ويقول : (وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ، ولبسوا الحلل ، وركبوا الدواب ، ولم ينفقوا منها درهما واحدا في سبيل الأكل) (٨٤) . وبعد أن يذكر شواهد واضحة ، ينتقل إلى المجاز في كلمة (الذوق) فيذكر قول الله تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » (٨٤) وقول يزيد ابن الصعق :

وإن الله ذاق حلــــــــوم قيس
فلما ذاق خفتها قلاها
رآها لا تطيع لها أميرا
فخلاها تردد في خلاها
ثم يقول : (وللعرب أقدام على الكلام ثقة بفهم أصحابهم عنهم وهذه - أيضا - فضيلة أخرى) (٨٥) . والذي نأخذه على الجاحظ - هنا - أنه وقف في سبيل القياس على مجازات العرب ، وحثم أن نلتزم ما التزموا ، ونحجم عما أحجموا ، وننتهي إلى حيث انتهوا) (٨٦) .

كما أكثر من أمثلة التشبيه ، وشواهد .

(٨٧) الحيوان ج ١ . ص ٢١١ .
(٨٨) الحيوان ج ٤ . ص ١٦٦ . الدسيس : من تدسه ليأتيك بالأخبار . الأخدع أحد الأخدعين ، وهما عرقا الرقبة . دمس : اختلطت ظلمته . جدعوا : هو من جدع بين البعيرين قرنها في قرن . تمزغ : يشتد سيرها . مشعشع : مخلوط . يُنْشَعُ : توضع في فمه ليشربها .

(٨٢) الآية ١٠ من سورة النساء .

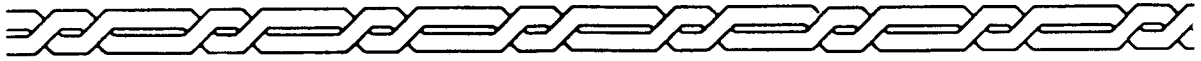
(٨٣) من الآية ٤٢ من سورة المائدة .

(٨٤) الحيوان ج ٥ . ص ٢٥ .

(٨٤) سورة الدخان . الآية ٤٩ .

(٨٥) الحيوان ج ٥ . ص ٢٨ .

(٨٦) الحيوان ج ١ . ص ٢١٢ .



وهذا الشعر من غرر الأشعار ، وهو مما يحفظ . اهـ .

قلت : وكأنه يشير إلى أن التشبيه أصل الاستعارة ، وأكثر التشبهات التي يذكرها مذكورة الأداة ، على أنه يعد - أيضا - حذف الأداة مع وجود الطرفين تشبيها ، وقد اختلف في ذلك من جاعوا بعده - كما هو معروف - .

وقد صرح بلفظ الاستعارة ، ولكن ورود الكلمة في كتبه قليل .

من ذلك ما جاء عند كلامه على (الذباب) ، فقد ذكر أن للذبان يعاسب ، ولكن ليس لها قائد ، ولا أمير ، ثم قال : (وكل قائد فهو يعسوب ذلك الجنس المقود ، وهذا الاسم مستعار من فعل النحل ، ثم ذكر شاهدا من كلام سيدنا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - في صلاح الزمان وفساده ، وهو قوله : (فإذا كان ذلك ضرب يعسوب الدين بذنبه) .

وقال في الموضع نفسه : (وعلى ذلك المعنى قال حين مرَّ بعبد الرحمن بن عباس بن أسيد قتيلا يوم الجمل : لهفي عليك يعسوب قريش ، جدعت أنفي ، وشفيت نفسي) (٨٩) .

وكذلك جاء لفظ الاستعارة ، والإشارة إلى تعريفها في موضع آخر .

ذكر هذه الإثبات :

يا دار قد غيرها بلاها
كأنما بقلم محاهها
آخر بها عمران من بناها
وكرُّ ممساها على مغناها
وظفقت سحابة تفشاها
تبكي على عراضها عيناها

ثم أخذ في تفسير الشطر الأول من البيت الثاني ، ووقف عند إسناد أضرار الدار إلى عمران بانها ، وأخذ يورد الشواهد على أن هذا الاستعمال كثير في لغة العرب ، وفي القرآن : أن يوضع الشيء موضع ضده .

فمن شواهد قول الله تعالى : « هذا نزلهم يوم الدين » قال الجاحظ : (والعذاب لا يكون نزلا ، ولكن لما قام العذاب لهم مقام النعيم لغيرهم سمي باسمه) .

وقال إن الله سبحانه وتعالى : (أجراه مجرى كلامهم ، كقول حاتم حين أمره بفصد بعير ، وطعنه في سنامه : هذا فصده) (٩٠) .

ثم قال بعد صفحات : (وعلى تأويل قوله تعالى : (هذا نزلهم يوم الدين) . (جهنم يصلونها وبئس المهاد) (٩١) .

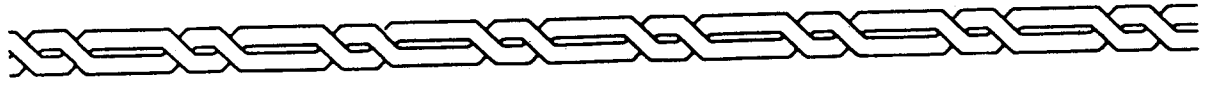
واستشهد كذلك بأبيات من الشعر :

فقلت : يا عمرو أطعمني تمرا
فكان تمر يكهرة وزبرا

(٩٠) الحيوان ج ٤ . ص ٢٧٣ .

(٩١) الحيوان ج ٤ . ص ٢٧٨ .

(٨٩) الحيوان ج ٢ . ص ٣٢٩ . والعبارة مشروعة في « لسان العرب » .



وذم بعضهم الفأر ، وذكر سوء أثرها في بيته ،
فقال :

يا عَجَلُ الرحمن بالعقاب

لعامرات البيت بالخراب

يقول : هذا عمارتها ، كما يقول الرجل :
ما نرى من خيرك ورفدك إلا ما يبلغنا من حطبك
علينا ، وقتك في أعضادنا (٩٢).

وقال الجاحظ معلقا على البيت الثالث من
الآيات التي صدرنا بها هذه لفقرة : (وجعل
المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة ،
وتسمية الشيء باسم غيره ، إذا قام مقامه) (٩٣) .

هذا . وقد مرَّ الجاحظ - هنا - بالمجاز العقلي ،
ولم يفتن له ، أو على الأقل لم ينبه إليه ، ففي البيت
الثاني إسناد الفعل (أخرج) إلى الزمن (كر
ممساهها) ، ولكنه اكتفى بقوله : (لأن الأيام
مؤثرة في الأشياء بالنقص والبي) .

ولا أعتقد أنه يرى هذا التأثير على الحقيقة ،
فألبتة كان المجاز على لسانه .

وقد استفاد المتأخرون من علماء البلاغة من
هذا البيان عند الجاحظ ، وذكروا ما سموه :
(الاستعارة التهكمية) .

وقد نبه ابن المعتز إلى لون بديعي ونسبه إلى
الجاحظ ، فقد كان النوع الخامس في كتابه
(البديع) . المذهب الكلامي . وقد قال :

(وهو مذهب سماه الجاحظ عمرو بن بحر
(المذهب الكلامي) ، وهذا باب ما أعلم أنني
وجدت في القرآن منه شيئا ، وهو ينسب إلى
التكلف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) (٩٤)

والعبارة الأخيرة يحتمل أن تكون من كلام
الجاحظ ، وأن تكون من عبارات ابن المعتز ،
و (التهانوي) يسندها إلى الجاحظ . إذ يقول :
(وزعم الجاحظ أن المذهب الكلامي لم يجيء في
القرآن) (٩٥) .

وأدعى السيوطي أن (ابن أبي الأصبع) نسب
هذه الكلمة إلى الجاحظ ، قال : (وقال ابن أبي
الأصبع : زعم الجاحظ أن المذهب الكلامي
لا يوجد منه شيء في القرآن) (٩٦) .

ولكن ابن أبي الأصبع نسب العبارة إلى (لابن
المعتز) حيث قال : (وهو الذي نسبت تسميته
إلى الجاحظ ، وزعم ابن المعتز أنه لا يوجد في
الكتاب العزيز ، وهو محشو منه) (٩٧) .

وكذلك نسب أبو هلال العسكري هذه
العبارة إلى ابن المعتز ، قال : (جعله عبد الله بن
المعتز الباب الخامس من البديع ، وقال : ما أعلم
أنني وجدت منه شيئا في القرآن ، وهو ينسب إلى
التكلف ، فنسبه إلى التكلف ، وجعله من
البديع) (٩٨) .

وسواء كانت هذه العبارة من قول الجاحظ ، أم

(٩٢) الكهرة : الانتهاز . الزبر : الزجر والمنع . حطب عليه :
سعى به .

(٩٣) البيان . ج ١ . ص ١٥٣ .

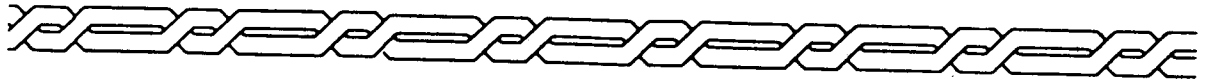
(٩٤) البديع . ص ١٠١ .

(٩٥) كشف اصطلاحات الفنون ج ١ . ص ٥١١ .

(٩٦) الاتعان في علوم القرآن ج ٢ . ص ١٣٥ .

(٩٧) تحرير التحيير ص ١١٩ .

(٩٨) الصنائع ص ٤١٠ .



من قول عبد الله بن المعتز فإنه يبعد أن يجعل الجاحظ المذهب الكلامي من البديع على ما فهمه ابن المعتز من مدلول هذا المذهب فالجاحظ يغالي بقيمة البديع ، فلا يجعل منه ما يغمض به الكلام ، وما ينسب إلى التكلف .

ويبدو أن ابن المعتز فهم منه أنه إيراد حجة للمطلوب على طريقة المتكلمين ، ولهذا نسبه إلى التكلف ، لكن نجم الدين الطوفي قال في جدول القرآن : إن المذهب الكلامي إيراد الحجج والبراهين على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلمين (٩٩) .

فإذا كان - كما يقول الطوفي - فهو من بديع الجاحظ ، ولكننا حين نثبت أو ننفي تنقصنا الحجة الحاسمة ، وهي أن نجد هذا النوع في كتاب من كتب الجاحظ ، فحينئذ نعرف أى مكان وضع الجاحظ هذا الفن البلاغي .

غير أن كلمة أبي هلال : (فنسبه إلى التكلف ، وجعله من البديع) تدل على أنه فكر أن يكون من بديع الجاحظ .

ولكن الأمر المحير حقاً أني لم أر أحداً من ذكروا هذا المذهب بين لنا أين قال الجاحظ به ، ولا ماذا قال فيه .

ومما يدعو إلى الحيرة أكثر من هذا أن أبا هلال - مع عنايته البالغة بما كتب الجاحظ - لم يقرن اسم الجاحظ بهذا المذهب حين ذكره في كتابه .

بقى نوع من البديع جاء في البيتين اللذين

ذكرهما الجاحظ ، وهو يتحدث عن البديع .

هذا النوع هو : (ردّ اعجاز الكلام على ما تقدمها) ، وهو يظهر في البيت الأول :

هم ساعد الدهر الذي يتقى به
وما خير كف لا تنوء بساعد

كما يظهر في البيت الثاني :

هم كاهل الدهر الذي يتقى به
ومنكبه إن كان للدهر منكب

في تكرار كلمتي (ساعد) في البيت الأول ، و (منكب) في البيت الثاني .

كان من حق هذا النوع من البديع أن ينسب إلى الجاحظ ، لكن كان هذا النوع من الجاحظ على طرف التمام . فلو تنبه له ، لنبه عليه .

هذا . وقد عرض الجاحظ لألوان أخرى من اليا أخذها المتأخرون عنه ، وإنه لم يفصح هو عن نوعها .

من ذلك ما سماه علماء البلاغة : (الاحتراس) ، وسماه الجاحظ : (إصابة المقدار) .

قال : (وقال طرفة في المقدار ، وإصابته : فسقى ديارك - غير مفسدها -

صوب الربيع ، وديمة تهمي

طلب الغيث على قدر الحاجة ؛ لأن الفاضل ضار ، وقال - ﷺ - في دعائه : (اللهم اسقنا سقياً نافعاً) ؛ لأن المطر ربما جاء في غير إبان الزراعات ، وربما جاء والتمر في الجرن ، والطعام في



البيادر ، وربما كان في الكثرة مجاوزا لمقدار الحاجة (١٠٠).

وعرض للكناية ، وذكرها باسمها ، وأكثر من أمثلة الكناية عن ذات ، وقلل من أمثلة الكناية عن صفة ، ولم يشير إلى الكناية عن النسبة .

قال : (ومن المحدث المشتق اسم منافق لمن رآي الإسلام ، واستسر الكفر . أخذ ذلك من النافقاء ، ومثل المشرك والكافر ، ومثل التيمم . قال تعالى : « فتييموا صعيدا طيبا » أى تحروا ذلك ، وتوخوه ، وقال : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » فكثرت هذا في الكلام حتى صار التيمم هو المسح نفسه .

وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالت صحبتهم ، وملاستهم له .

وكما سموا رجميع الإنسان الغائط ، وإنما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون إليها إذا أرادوا قضاء الحاجة للستر .

ومنه العذرة ، وإنما العذرة الفناء ، والأفنية هي العذرات ، ولكن لما طال إلقاؤهم النجس والزبل في أفنيته سميت تلك الأشياء التي رموا بها باسم المكان الذي رميت فيه ، وفي الحديث : (أنقوا العذرات) ، وقال ابن قيس الرقيات :

رحم الله أعظما دفنوها

بسجستان طلحة الطلحات

كان لا يحجب الصديق ولا يقبـ

ـل بالبخل ، طيب العذرات

ولكنهم لكثرة ما كانوا يلقون نجوهم في أفنيته سموها باسمها .

ومنه (النجو) ، وذلك أن الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجة تستر بنجوة ، والنجو الارتفاع من الأرض ، قالوا من ذلك : ذهب ينجو ، كما قالوا : ذهب يتغوط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر ، ثم اشتقوا منه ، فقالوا إذا غسل موضع النجو : قد استنجى .

وبعد أن ذكر كلمات آخر من هذا القبيل . قال : فكله كناية .

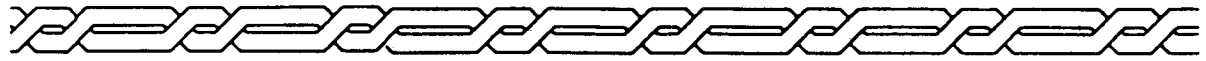
قال : ومن هذا الشكل الراوية ، والراوية هو الجمل نفسه ، وهو حامل المزايدة فسميت المزايدة باسم حامل المزايدة ، ولهذا المعنى سموا حامل الشعر والحديث رواية .

قلت : والمتأخرون يجعلون هذا المثل من باب المجاز المرسل ، وبعض الأمثلة التي سبقت تكون من هذا الباب .

قال : ومنه قولهم : ساق إلى المرأة صداقتها . قالوا : وإنما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون في الصداق إبلا ، وتلك الإبل يقال لها : النافجة .

ثم عاد مرة أخرى ، وذكر السر في استعمال هذه الكنايات ، قال : (ويقال لموضع الغائط : الخلاء ، والمذهب ، والخرج ، والكنيف ، والخش ، والمرحاض ، والمرفق .

وكل ذلك كناية واشتقاق ، وهذا - أيضا - يدل على شدة هربهم من الدناء والغسولة ، والفحش والقذع .



نقل عن أستاذه قوله : (لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا في كل مسألة ، فإن كثيرا منهم من يقول بغير رواية على غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب كان أحب إليهم) .

ثم ذكر جماعة من المفسرين وطائفة من تأولاتهم .

وعرض الجاحظ للمبالغة ، ولكنه لم يفصل فيها برأى ، وإنما اكتفى بذكر شواهد فيها إسراف ، وأخرى فيها اقتصاد .

قال : (وإذ قد ذكرنا شيئا من الشعر في صفة الضرب والطعن ، فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من إسراف من أسرف ، واقتصاد من اقتصد .

فأما من أفرط فقول المهلهل :

فلولا الريح أسمع من بحجر
صليل البيض تقرع بالذكور
ثم قال - بعد ذكر أبيات - (وما يدخل في هذا البيت قول عنترة :

رُغْنَاهُمْ وَالخَيْلُ تَرْدِي بِالْقَنَا
وَبِكُلِّ أبيض صَارِمٍ قَصَّال
وأنا المنية في المواطن كلها
والطعن مني سابق الآجال

وقوله :

أن المنية لو تمثلت مثلت

وكان قبل ذلك حكى عن العرب أنهم يتقون ألسنة الشعراء ، ولو بشرط المال ، ويهربون من الكلمة التي تؤثر عنهم فتعييبهم .

ثم قال : (وهذا مذهب فرعت فيه العرب جميع الأمم ، وهو مذهب جامع لأسباب الخير) (١٠٢) .

وقد جمع بين الكناية والتعريض في موضع من كتابه الحيوان (١٠٣) .

وكثير من المفسرين إلى عهده كانوا يرون قوله تعالى : (كانا يأكلان الطعام) من الآية : « ما المسيح بن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » [٧٥ سورة التوبة] .

كانوا يرون في هذا التعبير : « يأكلان الطعام » كناية عن قضاء الحاجة .

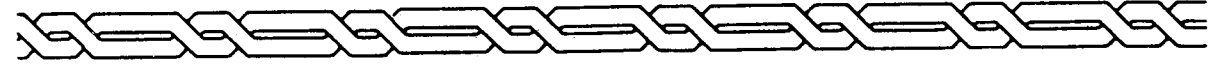
وقد نقل الجاحظ عن أستاذه (النظام) انكار هذه الكناية ، قال : (وقالوا في قوله تعالى : « كانا يأكلان الطعام » أن هذا إنما كان كناية عن الغائط ، كأنه لا يرى أن في الجوع ، وما ينال أهله من الذلة والعجز والفاقة ، وأنه ليس في الحاجة إلى الغذاء ما يكفي به في الدلالة على أنهما مخلوقان حتى يدعى على الكلام ، ويدعى له شيئا قد أغناه الله تعالى عنه) (١٠٤) .

وكان الجاحظ أعجب بكلامه هذا ، فهو يسترسل إلى عيب النظام للمفسرين ، ويطنل فيه .

(١٠٣) ج ٥ . ص ٤٥٧ .

(١٠٤) الحيوان ج ١ . ص ٣٤٤ .

(١٠٢) الحيوان ج ٥ . ص ٢٩٥ . ولا يغيب عن البال أن الجاحظ شديد الحب للعرب ، كثير الدفاع عنهم ، وفي باب البلاغة أشياء لا تخفي من هذا الحب .



مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل
ومن صدق على نفسه عمرو بن الأطنابة حيث
يقول: (١٠٥)

وإقدامي على المكروه نفسي
وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدي أو تستريحي
وللإيجاز والإطناب حديث طويل في كتب
الجاحظ ، وقد مرَّ شيء من ذلك .

ومن ذلك قوله : (وليس بإطالة ما لم يجاوز
مقدار الحاجة ووقف عند منتهى البغية) .

وإنما الألفاظ على مقدار المعاني ، فكثيرها
لكثيرها ، وقليلها لقليلها ، وشريفها لشريفها ،
وسخيفها لسخيفها ، والمعاني المفردة البائنة
بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما
تحتاج إليه المعاني المشتركة ، والجهات الملتبسة .

ولو جهد جميع أهل البلاغة أن يخبروا من دونهم
عن هذه المعاني بكلام وجيز يغني عن التفسير
باللسان ، والإشارة باليد والرأس لما قدروا عليه ،
وقد قال الأول : (إذا لم يكن ما تريد فأرد
ما يكون) .

وللجاحظ هنا لفظة لطيفة نظر فيها إلى قبول
النفوس ورفضها ، وإلى مدى استعدادها للسمع
والقراءة ، فهي تمل التطويل ، ولو كانت وراءه
فوائد لا تكون مع الإيجاز والاختصار .

قال : (وليس ينبغي للعاقل أن يسوم اللغات
ما ليس في طاقتها ، ويسوم النفوس ما ليس في
جبلتها ، ولذلك صار يحتاج صاحب كتاب المنطق
أن يفسر لمن طلب من قبله علم المنطق .

وإن كان المتكلم رقيق اللسان ، حسن البيان ،
إلا أي لا أشك أن النفوس إذا كانت إلى الطرائف
أحن ، وبالنوادر أشقف ، وإلى صغار الأحاديث
أميل ، وبها أصب أنها خليقة لاستثقال الكثير ،
وإن استحقت تلك المعاني الكثيرة ، وإن كان ذلك
الطويل أنفع ، وذلك الكثير أرد) (١٠٦) .

وفي موضع آخر يقول : (ولكل ضرب من
الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني
نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ،
والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح
في موضع الإفصاح ، والكناية في موضع الكناية ،
والاسترسال في موضع الاسترسال) (١٠٧) .

وقد مرَّ الجاحظ سريعا بالنوع الذي يسميه
البديعيون : (تأكيد المدح بما يشبه الذم) ، فبعد
أن ذكر الشواهد التي قلنا إن المتأخرين سموها
الاستعارة التمثيلية ، والتي بناها على قوله تعالى :
« هذا نزلهم يوم الدين » قال : (وقال النابغة في
شبيه بهذا ، وليس به :

وأيا ما كان فهذا هو التقسيم الذي عرف عند
علماء البديع فيما بعد .

كذلك مرَّ الجاحظ بما سماه المتأخرون :

(١٠٦) الحيوان ج ٦ . ص ٧ ، ٨ ، ٩ .

(١٠٧) الحيوان ج ٣ . ص ٣٩ .

(١٠٥) ج ١ . ص ٤١٨ . والمشيخ - بضم الميم - المجد ، والمائع

لما وراء ظهره .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بين فلول من قراع الكتائب (١٠٨)

فهو جمع بين المتناقضين - في الظاهر - كما
ذكر عن الفأر : (العمارات البيت بالخراب) ،
ولكن المقصود من هذا المدح ، أما ذاك وأمثاله
فالمقصود منه التهكم .

وبيت النابغة هذا هو الذي استشهدت به كل
كتب البلاغة شاهدا على هذا النوع البعي :
(تأكيد المدح بما يشبه الذم) .

كما مر الجاحظ بما سماه أصحاب الديدع :
(التقسيم) ، وذكر لفظ التقسيم ، فمنه أخذ .
جاء في شرحه لقصيدة بشر بن المعتمر الثانية
هذان البيتان :

(أسلوب الحكيم) حيث ذكر جواب عامر بن
عبد القيس حين قيل له ، وقد أقبل من الحلبة ،
وهو بالشام . من سبق ؟ قال : رسول
الله - ﷺ - . قيل : فمن صلى ؟ قال :
أبو بكر . قال السائل : إنما أسألك عن الخيل .
قال عامر : وأنا أجيبك عن الخير (١١٠) .
وذكر الجاحظ صورتين آخرين .

تعرف بالإحساس أقدارها
في الأسر والإلحاح والصبر
وكل شيء فعلي قدره
يحجم أو يقدم أو يحـري

وعلق على البيت الأول : بقوله : (يقول :
لا يخفي على كل سبع ضعفه وتجلده ، قوته ،
وكذلك البهيمة الوحشية لا يخفى عليها مندار قوة
بدنها وسلاحها ، ولا مقدار عدوها في الكر
والفر ، وعلى أقدار هذه الطبقات تظهر
أعمالها) .

ومما علق به على البيت الثاني قوله : (وقسم
الأشياء . فقال : إنما هو نكوص وتأخر . وفرار ،

أولاهما : أن يضمن الجواب بعض سؤال
السائل ، وإن لم يكن له وجود . قال : (وقال الله
- عز وجل - : « إن أصحاب الجنة اليوم في
شغل فاكهون » ، وأصحاب الجنة لا يوصفون
بالشغل وإنما ذلك جواب لقول القائل : خبرني عن
أهل الجنة . بأي شيء يتشاغلون ؟ أم لهم فراغ
أبدا ؟ فيقول الجيب . لا . ما شغلهم إلا في
افتضاض الأبكار ، وأكل فواكه الجنة ، وزيارة
الإخوان على نجائب الياقوت .

على السابق .

(١١١) سورة يس . الآية ٥٥ .

(١٠٨) الحيوان ج ٤ . ص ٢٧٤ .

(١٠٩) الحيوان ج ٦ . ص ٤٠٨ .

(١١٠) الحيوان ج ٤ . ص ٢٧٦ . والمصلي في الحلبة هو الذي .

وقد لاحظت أن الجاحظ ، وهو ينثر ألوانه
البلاغية في كتبه يحرص على أمرين .

الأول : أن يوضح أن المجاز وما إليه من
أساليب العرب إنما هو توسع منه ،
وأنه مستساغ مقبول لأن السامع
يفهم غرض القائل .

الثاني : ضرورة معرفة وفهم هذه الألوان لمن
يريد أن يترجم أو يفسر ، أو يتكلم
في الدين .

ومما قاله في ذلك : (وقد خاطب) الله
سبحانه - بهذا الكلام - المجاز - أهل مكة
وهذيل ، وضواحي كنانة ، وهؤلاء أصحاب
العسل^(١١٤) ، والأعراب أعرف بكل صمغة
سائلة ، وعسلة ساقطة ، فهل سمعتم بأحد أنكر
هذا الباب ، أو طعن عليه من هذه الجهة ؟ .

ويقول في ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم :
(فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية ، وموضع
كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم ، ولتلك
الألفاظ مواضع أخر ، ولها - حينئذ - دلالات
أخر ، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة ،
والشاهد والمثل ، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب
من العلم ، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك
وأهلك) .

ثانيتهما : مراعاة حال المخاطب .

قال - بعد أن ذكر جواب عامر بن
عبد القيس - : وهو كقول المفسر حين سئل عن
قوله : « لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا »^(١١٢) ،
فقال : ليس فيها بكرة وعشئ ، وقد صدق
القرآن ، وصدق المفسر ، ولم يتناكرا ، ولم
يتنافيا ؛ لأن القرآن ذهب إلى المقادير ، والمفسر
ذهب إلى الموجود من دوران ذلك مع غروب
الشمس وطلوعها .

ويبدو أن الجاحظ كان يفرق بين التشبيه
والتمثيل حين قال : وقال في التمثيل :
إن شرخ الشباب والشعر الأسود مالم يُعاصَ
كان جنونا .

وقال الآخر :

لما رأتنى هنّد قاصرا بصري

عنها ، وفي الطرف عن أمثالها زور

قالت : عهدتك مجنونا فقلت لها :

إن الشباب جنون برؤه الكبير^(١١٣)

فربما كان الجاحظ نظر إلى أن التشبيه في البيت
الأول مقيّد ، وفي البيت الثاني (قالت
عهدتك ...) مركّب . وربما كان نظر إلى أن
المشبه به عقلي فيهما ، وبكل قيل في حد التمثيل ،
أو على وجه الدقة (تشبيه التمثيل) .

مختلف ألوانه .

(١١٥) الحيوان ج ٥ . ص ٤٢٤ وما بعدها .

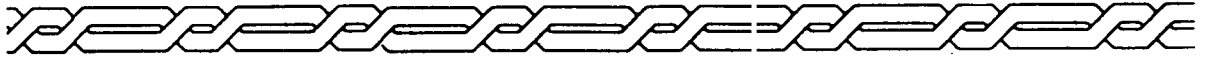
(١١٦) الحيوان ج ١ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(١١٢) سورة مريم من الآية ٦٢ .

(١١٣) الحيوان ج ٦ . ص ٢٤٤ . والبيت بين القوسين لم يورده

الجاحظ ، وإنما نبه إليه المحقق .

(١١٤) الإشارة إلى قوله تعالى في النحل : « يخرج من بطونها شراب



وتحدث عن ترجمة الشعر ، وقال إنها غير ممكنة مع بقاء الشعر على روعته ، وأذ الكلام المنشور المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من البثور الذي تحول من موزون الشعر .

ثم تحدث عن الترجمان بصفة عامة ، وما يشترط فيه ، ومما قاله : (وحتى يعرف المثل والبديع والوحي والكناية ، وفصل ما بين الخطل والهلل ، والمقصود والمبسوط والاختصار ، وحتى يعرف أبنية الكلام ، وعادات القوم ، وأسباب تفاهمهم .

والذي ذكرنا قليل من كثير ، ومتى لم يعرف المترجم ذلك أخطأ في تأويل كلام الدين .

والخطأ في الدين أضر من الخطأ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء ، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم (١١٧) .

ويكاد يكون ما قاله الإمام عبد القاهر في شأن من يجهل فقه العبارات ، ومجازات ناظرا إلى هذا الذي ذكره الجاحظ ، قال : (ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن توهموا أبدا في الألفاظ الموضوعية على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها ، فيفسدوا المعنى بذلك ، ويطلبوا الغرض . ويمنعوا أنفسهم ، والسامع منهم ، العلم بموضع البلاغة ، وبمكان الشرف ، وناهيك بهم إذا هم أخطوا في ذكر الوجوه ، وجعلوا يكثررون في غير طائل .

هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه ، وزند ضلالة قد قدحوا به (١١٨) .

ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق . ونعود إلى الجاحظ فنجده يجيب على من يعترض على التعبير بالمشى مكان التعبير بالانسياب في قوله تعالى : « فمنهم من يمشي على بطنه » (١١٩) . يقول : ومن جعل للحياة مشيا من الشعراء أكثر من أن نقف عليهم ، ولو كانوا لا يسمون انسيابها وانسيابها مشيا وسعيها لكان ذلك مما يجوز على التشبيه والبدل . وإن قام الشيء مقام الشيء ، أو مقام صاحبه فمن عادة العرب أن تشبه به في حالات كثيرة .

وقد قال المعترض : إن المشى لا يكون إلا برجل كما أن العض لا يكون إلا بفم ، وليس للحيات أرجل .

وكذلك أجاب الجاحظ بما تقدم عن التعبير بالسعي في قوله تعالى : « فإذا هي حية تسعى » (١٢٠) .

قال : (والعرب تتوسع في كلامها ، وبأى شيء تفاهم الناس فهو بيان ، إلا أن بعضه أحسن من بعض) (١٢١) .

وكان يعلق بذلك على أن العرب (قد يشتقون لساتر الحيوان الذي يصوت اسم الناطق ، إذا قرنوه في الذكر إلى الصامت ، ولهذا الفرق أعطوه هذه المشاكلة ، وهذا الاشتقاق ، فإذا تهيأ من

(١٢٠) سورة طه . من الآية ٢٠ ، والنص من كتاب الحيوان

ج ٤ ص ٢٧٤ .

(١٢١) الحيوان ج ٥ ص ٢٨٧ .

(١١٧) الحيوان ج ١ ص ٧٨ .

(١١٨) دلائل الإعجاز . ص ٢٩٥ . نشر مكتبة القاهرة .

(١١٩) سورة النور . من الآية ٤٥ .



لسان بعضها من الحروف مقدار يفضل به على
مقادير الأصناف الباقية كان أولى بهذا الاسم
عندهم .

فلما تنبأ للقطة ثلاثة أحرف : قاف وطاء
وآلف ، وكان ذلك هو صوتها سموها بصوتها ، ثم
زعموا أنها صادقة في تسميتها نفسها قطا .

قال الكميت :

كالناطقات الصادقات الواسقات من الذخائر .

وقال الآخر (هو الفرزدق) ، وذكر القطة :

وصادقة قد خبرت ما بعثتها

طروقا ، وباقي الليل في الأرض مسدفة (١٢٢)

فجعلها مخيرة ، وجعل خبرها صدقا ، حين
زعمت أنها قطا ، وإن كانت القطة لم ترم
ذلك) .

ولا أدري لما خص الشعر ، والشعراء ببعض
الاستعمالات ، وكأنه يحرم ذلك في النثرين ،
وهذا مما لا وجه له عندي .

قال : (وكل بيضة في الأرض فإن اسم الذي
فيها ، والذي يخرج منها فرخ إلا بيض الدجاج فإنه
يسمى فروجا ، ولا يسمى فرخا ، إلا أن الشعراء
يجعلون الفروج فرخا على التوسع في الكلام ،
ويجوزون في الشعر أشياء لا يجوزونها في غير
الشعر .

قال الشاعر :

لعمرى لأصوات المكاتي بالضحى
وسودّ تداعى بالسعشى نواعبه
أحب إلينا من فراج دجاجة
ومن ديك أنباط تنوس غباغبه
وذكر كذلك هنا أبياتا للشماخ بن
ضرار (١٢٣) .

وهو - كما ذكرت - تحجير واسع ، وإذا كان
الشعر يختص بأشياء فما أظن أن بينها المجاز .

بين القديم والجديد :

رأى الجاحظ كثيرا من الرواة يهرجون أشعار
المولدين فاتهمهم بأنهم غير بصراء بجوهر الشعر ،
ولو كان لهم بصر لعرفوا موضع الجيد ممن كان ،
وفي أي زمان كان .

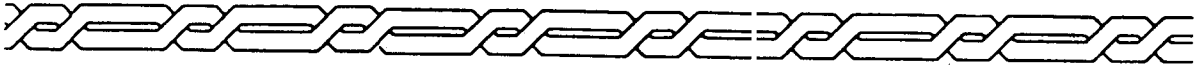
وفي هذه العبارة الأخيرة - وهي من عبارات
الجاحظ - إشارة إلى أن الجاحظ لا يهضم أحدا
حقه ، وأنه يختار ، ويحكم للجيد بالجودة ، قديما
كان أم حديثا .

والخصومة بين القديم والجديد تقوم أساسا على
قضية اللفظ والمعنى ، وترتبط ارتباطا وثيقا
بالزمن .

ذلك أن القدماء أصحاب ألفاظ فخمة ،
واضحة ، حسنة ، أو كما يقول الجاحظ في وصف
بيانهم : (ونحن - أبقاك الله - إذا ادعينا للعرب
أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن

(١٢٣) الحيوان ج ١ . ص ١٩٩ . والسود - بالفتح - سفع
مسنو . كثير الحجارة السود .

(١٢٢) الواسقات : الجامعات . طروقا : ليلا . مسدفة :
مظلم . وفي المثل : ل : أصدق من
قول قطة قطا .



المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج ومالا يزدوج
فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صدق من الديباجة
الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت
الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم
في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير ، والنبد
القليل (١٢٤).

وهذه كلها صفات ترجع إلى (اللظ) ،
وأشعر الناس اليوم لا يستطيع أن يقول مثل ما كن
يقول العرب ، فطبيعي أن يفضل الجاحظ- القديم
على الجديد ، وقد كان ذلك ، فهو يقول :
(والقضية التي أحترش منها ، ولا أهاب الخصومة
فيها ، أن عامة العرب والأعراب ، والبدو والحضر
من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار
والقرى ، من المولدة والناتئة ، وليس ذلك بواجب
لهم في كل ما قالوه) (١٢٥).

فهواه مع العرب والأعراب ، ولكننا ينصف
فيرى أن الإحسان ليس واجبا لهم (في كل
ما قالوه) .

هذه خلاصة رأيه .

ولكن الرواة يبهجون أشعار المولدين جملة ،
ويستسقطون من رواها ، ولا يرون في شعر
القدماء عيبا ، أو عيوباً طفيفة ، ويتعصبون لهم
تعصبا . أعيا الأساة ، وحير المنصفين

هاهو ذا واحد منهم يعتب على صديق له تأخر
عن زيارته أياما فيعتذر صديقه بأنه كاد ، متشاغلا
باختيار شعر امرئ القيس ، فيغضب العاتب ،

وينكر على صاحبه قوله هذا ، ويقول له : أما
تستحي من هذا القول ؟ وأى مردول في شعر
امرئ القيس حتى تحتاج إلى اختياره ؟ .

فلا يمنع الجاحظ حبه للقديم ، وإعجابه به -
وهو العالم المنصف - أن ينصف المحدثين ،
ويعطيهم حقهم ، فيقف عند الجيد من أشعارهم ،
يمتدحه ، ويدعو إلى الإعجاب به .

روى رجزا لأبي نواس في صفة كلاب
الصيد ، ثم قال : (هذا مع جودة الطبع ، وجودة
السبك ، والحدق في الصنعة ، وإن تأملت شعره
فضلته ، إلا أن تعترض عليك العصية ، أو ترى أن
أهل البدو أبدا أشعر ، وأن المولدين لا يقاربونهم
في شيء فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك
لا تبصر الحق من الباطل ، ما دمت مغلوبا (١٢٥).

هكذا انتصف الجاحظ للمولدين ، ولكنه
لا يزال يفضلهم للصفات التي يفصل بها شعر
العرب : (جودة الطبع ، وجودة السبك ،
والحدق بالصنعة) .

وقد بنى كلامه على أن أبا نواس استقصى في
أراجيزه صفات الكلاب لأنه عرف منها ما لم تعرفه
الأعراب ، فقد كان عالما راوية ، ولعب بالكلاب
زمانا ، فأى فضيلة تطلب عند القدماء ،
ولا توجد في شعر هذا المولد ؟

والذى يقف عنده الدارس أن الجاحظ في هذا
الموضع لم يطلب في المعاني إلا أن تكون
مستقصاة ، وأن تكون صحيحة ، أما الألفاظ

(١٢٥) الحيوان ج ٢ . ص ٢٧ .

(١٢٤) البيان والتبيين ج ٣ . ص ٢٩ .

(١٢٥) الحيوان ج ٣ . ص ١٣٠ ، ويريد بالناتئة : لطائرين .

وكانني بالجاحظ يعرض في هذه الكلمات بأي
تمام .

والعجب منه لم يذكر - فيما وقفت عليه من
آرائه - أبا تمام بخير ولا بشر .

ولم يرسلها صريحة ، كما فعل صاحبه من بعد
عبد القاهر الجرجاني ، فقد تحدث عن صيانة
اللفظ عما يحوج إلى الاعتذار ، ويؤدي إلى
النفاق ، ثم قال : (ومن هذه الجهة يلحق الضيم
كثيرا من شأنه وطريق طريق أي تمام ولم يكن من
المطبوعين) (١٢٨) .

قضية اللفظ والمعنى :

أرجح أن الجاحظ أول من قضى قضاء واضحا
لا ليس فيه ولا غموض بين اللفظ والمعنى ،
فضل أحدهما على الآخر .

وقد سبقت قضاء الجاحظ كلمات تتصل بهذه
القضية ، فكانت تمهيدا لحكم الجاحظ ، وأكثر
هذه الكلمات كان في مجال النقد الأدبي ، وفي مجال
الجدل الكلامي حول إعجاز القرآن .

قال الجاحظ بعد أن اتهم من يهريج أشعار
المولدين بأنه غير بصير بجوهر ما روى : (وأنا
رأيت أبا عمرو الشيباني ، وقد بلغ من استجادته
لهذين البيتين ، ونحن في المسجد يوم الجمعة أن
كلف رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا ، حتى
كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين
لا يقول شعرا أبدا .

فقد أشار إلى أنه صفاتها .

لم يكن الجاحظ يفضل المولدين لمعانيهم التي
يغوصون لاستخراجها فلم تؤثر عنه كلمة واحدة
في ذلك .

ولعل أكبر دليل على هذا أنه كأنه تجهل
أبا تمام ، مع أنه معاصر ، مات ، والجاحظ
لا يزال على قيد الحياة ، ولا شك أنه أدرك
الخصومة حول شعره ، ومع ذلك لا نجد لأبي تمام
في كتاب (الحيوان) إلا بيتين أو ثلاثة . مع أنه
اختار لبشار وأبي نواس ومسلم ، وكل ذلك يدل
على أن ذوق الجاحظ كان يميل إلى تفضيل اللفظ ،
كما حكم بذلك في غير لبس ولا غموض .

كان ذوقه مع القديم ، وسر جودة القديم الذي
تقدم به امرؤ القيس والنابعة والأعشى هو حلاوة
الكلام ، وطلاوته ، مع البعد عن السخف
والركاكة (١٢٦) .

فإذا فضل الجاحظ شعرا من شعر المحدثين فلا
جرم يكون فيه هذا السر الذي تقدم بها القدماء ،
وليس في لفظ أبي تمام المفرق في البديع هذه
الحلاوة ، ولا تلك الطلاوة .

على أن أبا تمام كان يعمد إلى الألفاظ الأقل
شيوعا نتيجة تكلفه البديع ، والجاحظ يرى في
اختيار الألفاظ أن يكون بها ما دام (في المعاني التي
هي عبارتها ، والعادة فيها أن ألفظ بالشئ العتيد
الموجود ، وأدع التكلف لما عسى إلا بسلس
ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة) (١٢٧)

(١٢٨) أسرار البلاغة ص ٢٤٥ طبعة أولى .

(١٢٩) الحيوان ج ٣ . ص ١٣١ ، ٣٣٢ ، والفتك : المجون .

(١٢٦) العملة ج ١ . ص ٩٣ .

(١٢٧) الحيوان ج ٣ . ص ٣٦٨ .



ولولا أن أدخل في الحكم بعض الفتك زعمت
أن ابنه لا يقول شعرا أبدا ، وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى
فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا

أشد من ذاك على كل - قال
وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني ، والمعاني
مطروحة في الطريق يعرفها العجمي ولعربي ،
والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ،
وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة المائه ، وفي
صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر
صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس
من التصوير .

وقد أورد الجاحظ هذه الكلمة في كتاب
(الحيوان) ، وهو سابق لكتاب (البيان
والتيين) ، إذ أشار فيه إلى كتاب الحيوان ، فكل
ما كتبه في كتاب (البيان) راجع إلى هذا الحكم ،
فرايه هذا هو الأساس لكل ما قاله بعد ذلك ، مما
يتعلق باللفظ والمعنى ، ويؤكد هذا أننا لم نجد له
رأيا مخالفا .

وكذلك يتفق هذا الحكم مع رأيه في إعجاز
القرآن ، فالمشهور عنه أنه كان يرى الإعجاز في
(نظم القرآن وتأليفه) .

ومن الدليل على ذلك قوله : (وفي كتابنا
المنزل الذي يدل على أنه حق نظمه البيع الذي
لا يقدر على مثله العباد ، مع ماسوى ذلك من

الدلائل التي جاء بها من جاء به) (١٣٠) .

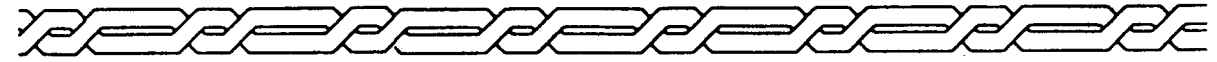
وقوله في موضع من رسالة النبوة بعد أن ذكر
أن الصحابة - رضوان الله عليهم - جمعوا الناس
على قراءة زيد بن ثابت ، وهى القراءة المعروفة
المشهورة عندهم ، وهذا مبالغة في تحصيل
القرآن ، لأن الحرف والحرفين الشاذين
لا يخفيان ، قال : (لأن رجلا من العرب لو قرأ
على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة ،
طويلة أو قصيرة ، لتبين له في نظامها ، ومخرجها ،
وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى
بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها) (١٣١) .

ثم إن من العلماء المؤلفين في علم الكلام من
أسند هذا الرأي للجاحظ ، قال ، صاحب
كتاب (المواقف) في كتاب : (النبوات) ،
وهو يتحدث عن إعجاز القرآن : (وقيل كونه في
الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها ، وعليه
الجاحظ .

وقد حكى الإمام عبد القاهر رأى الجاحظ في
تفضيل اللفظ على المعنى ، وأن المعاني لا يكون بها
تفاضل ، فبعد أن ذكر أن الداء الدوى هو غلط
من قدم الشعر بمعناه ، وأقل الاحتفال باللفظ ،
وقال إنه لا يرى متقدما في علم البلاغة ، ميرزا في
شأنها ، إلا وهو ينكر هذا الرأي ، ولست تنظر في
كتاب صنف في شأن البلاغة ، وكلام جاء عن
القدماء إلا وجدته يدل على فساد هذا المذهب ،
ورأيهم يتشددون في أفكاره وعييه ، والعيب به ،
ثم قال : (وإذا نظرت في كتب الجاحظ وجدته

(١٣٠) الحيوان ج ٤ . ص ٩٠ .

(١٣١) هامش الكامل ج ١ . ص ٩١ .



غير أن الجاحظ - مع عبارته السابقة - كان يرى المبالغة مفسدة لكل شيء فالمبالغة في تهذيب الألفاظ ممقوته ، وكذلك المبالغة في طلب المعاني الغريبة ممقوته : (ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني ^(١٣٥))

وإذا . فما حقيقة موقف الجاحظ من المعاني ؟ .

تقدير جودة الكلام عنده لا تتوقف على وجود معنى غريب مخترع ، وإن كان هذا المعنى -إذ لو وجد- يزيد الكلام شرفا ، ولكن ليس معنى ذلك أن الكلام الجيد يخلو من معنى ، وإلا كان أجوف فارغا .

والسر كله في القدرة على الصياغة الجميلة ، فإذا استطاع المتكلم أن يصوغ المعاني الساذجة صياغة رائعة ، وقدر على أن يبرزها في أسلوب عذب ، خالص من الشوائب كان عند الجاحظ بليغا .

وتحقيق حظ الكلام من المعنى ليس يتطلب حتما معاني بديعة مخترعة ، وإنما يكفي أن يكون المعنى صحيحاً ، وأن يكون مؤديا للغرض .

وربما كان ألطف تعبير عن رأي الجاحظ في هذا الشأن ما قاله شاعر معاصر من شعراء المهجر الأمريكي :

ألا إن خير الشعر ما ساغ لفظه

وما كان مما يسبق اللفظ معناه
إذا جاءني المعنى الغريب فمرحبا
وإن لم يجيء لا رد غريته الله

يبلغ في ذلك كل مبلغ ، ويتشدد غاية التشدد ، وقد انتهى في ذلك إلى أن جعل العلم بالمعاني مشتركا ، وسوى فيه بين الخاصة والعامة ^(١٣٢) .

ثم ذكر القصة التي عاب فيها الجاحظ أبا عمرو الشيباني ، والتي أثبتا وعلل تشدد العلماء في أفكار هذا المذهب - تفضيل الشعر بمعناه ، وقلة الاحتفال باللفظ - بأن (الخطأ فيه عظيم ، وأنه يفضي بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ، ويبطل التحدي من حيث لا يشعر) ^(١٣٣) .

موقف الجاحظ من المعنى :

لقد قال إن المعاني مطروحة في الطريق ، فهل كان يستهين بها ، ويجعلها من سقط المتاع ؟
الجواب بالنفي . فالجاحظ لم يغفل شأن المعنى ، فهو وإن كان يعني باللفظ عناية كاملة حتى ليقول : (ربما خرج الكتاب من تحت يدي محصفا كأنه من حجر أملس ، بمعان لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة ^(١٣٤)) يفرق في بعض الأحيان تحسينه الألفاظ بالمعاني اللطيفة المحكمة ، كما في هذه العبارة .

وقد أشار كثيرا إلى المعنى الشريف ، مع اللفظ الشريف ، وإلى أن الأثر الجيد من الكلام يتم بهما معا .

ومن ذلك قوله : (إن المتكلم لا يكون بليغا حتى يعطي اللفظ حقه من البيان ، ويحقق للكلام حظه من المعنى ، ويضع جميعها مواضعها)

(١٣٤) مجموعة رسائل الجاحظ ص ١٠٩

(١٣٥) البيان ج ١ ص ٢٥٥

(١٣٢) دلائل الإعجاز ص ١٩٧ .

(١٣٣) دلائل الإعجاز ص ١٩٨ .

المراد بالمعنى عنده :

ذهب بعض الكاتين إلى أن المراد بالمعنى - عند الجاحظ - هو المعنى العام ، قال وهذه هي المعاني التي يقدر عليها الناس جميعا ، من مثل الامتداح بالشجاعة ، أو بالكرم ، أو ما أشبه ذلك .

وإنما ذهب إلى هذا التفسير لينفي عن الجاحظ الغفلة ، أو الرأي الفطير ، إذ أنه من غير الممكن - في رأيه - أن يعتقد أبو عثمان أن كل إنسان ، عربي أو أعجمي قادر على أن يجيء بالمعنى الغريب المتبدع .

ولكن الذي يعن النظر في كلام الجاحظ في مواضع كثيرة من كتبه يجده يريد بالمعنى (المعنى الخاص) من تشبيه مصيب ، أو حكمة مسلمة ، أو معنى لطيف ، أو معنى وسط يحدث فيه صنعة ، وأن المعاني الخاصة موضع سرقة ، وأنها بعد أن يوردها مخترعوها يمكن أن يأخذها من بعدهم

(ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، أو في معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مخترع ، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده ، أو معه إن هو لم يغد على لفظه فيسرق بعضه ، أو يدعيه بأسره ، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكا فيه (١٣٨) .

على أن بين أيدينا الدليل على أن الجاحظ إنما يريد بالمعنى (المعنى الخاص) : هذا المعنى الذي استحسنة أبو عمرو الشيباني ، فدعا الجاحظ إلى أن يتحكم به : (معنى خاص) ، والجاحظ يقول

وفي رأى الجاحظ أن البليغ يستطيع أن يكسو المعنى الوسط عبارته تجعله رائعا ، وأن المعنى لوسط تسمو منزلته إذا زين وزخرف ، ولعله نظر في ذلك إلى قول الأصمعي ، وقد سئل : من أنتعر الناس ؟ . فقال : الذي يجعل المعنى الحسيس بلفظه كبيرا ، وينقضي كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى (١٣٦) .

فالمعاني المخترعة ليست ركنا جوهريا في جودة الكلام ، وإن كان يحكم لها بغاية الجودة إذا لفر بها البليغ ، ولكن يحكم لها - أيضا - بغاية الجودة إذا حسنت الصياغة ، وجاد التصوير ، وإن كانت وسطا أو مسبوqa بها .

وربما كان بعض مادعا الجاحظ إلى هذا ما به في إعجاز القرآن ، فهو يعلم أن بعض المعاني الراردة في القرآن كانت في الصحف الأولى : صحف إبراهيم وموسى ، وبعضها كان في زبر الأولين ، ومع ذلك لا يفارقها الأعجاز ، وهو يعلم أن معاني كثيرة في القرآن جاءت في التوراة والإنجيل ، ومع ذلك فالقرآن معجز ، وهذان الكتابان غير معجزين .

وهو يعلم أخيرا أن آيات في القرآن خت من معنى يعجز البشر عنه ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا دودا زبورا » ، فإنها أسماء رجال فقط ، ولا وجه للإعجاز في هذه الآية إلا ما يراه الجاحظ في نظامها ، ومخرجها ، ولفظها ، وطمعها .

القرآن لولا أن الله صرفهم ، فنظمه ليس خارقا للعادة ، وليس فوق قدر البشر ، وقد كان مقتضى ذلك أن يجعل الجاحظ الإعجاز في معاني القرآن حتى يعجز العرب عنه ، أو في إخباره عن الغيوب

- كما قال أستاذه النظام - ، أما أن يقول أن النظم معجز ، ثم يقول أن العرب كانوا قادرين على مثله ، فهو تناقض يبعد أن يقع من مثله ؟

لقد عرض المرحوم مصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن) لهذه المشكلة وعلل صنيع أبي عثمان بكثرة الاضطراب ، قال : (أما الجاحظ فإن رأيه في الإعجاز كراى أهل العربية ، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها ، وله في ذلك أقوال نشير إلى بعضها في موضعه ، غير أن الرجل كثير الاضطراب ، فإن هؤلاء المتكلمين كأنما كانوا من عصرهم في منخل .. ولذلك لم يسلم هو - أيضا - من القول بالصرقة ، وإن كان قد أخفاها ، وأوما إليها عن غرض .

فقد سرد في موضع من كتابه (الحيوان) طائفة من أنواع العجز ، وردّها في العلة إلى أن الله صرف أوهام الناس عنها ، ورفع ذلك القصد من صدورهم ، ثم عدّ منها : ما رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ، وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما في نفسه من أثر أستاذه ، وهو شيء ينزل على حكم الملابس ، ويعتري أكثر الناس إلا من تنبه له ، أو عليه ، أو هو يكون ناقلا ، ولا نندري (١٣٩) .

كلمته : (والمعاني مطروحة في الطريق) بعد أن ذكر استحسان الشيخ لمعنى البيتين .

وهنا نتساءل : ماذا عاب الجاحظ من لفظ البيتين ؟

يبدو أنه لم يعجبه نسجهما : (ولكن ذا أشنع من ذا) ، كما لم تعجبه بعض العبارات التي تشبه أن تكون سوقية : (على كل حال) .

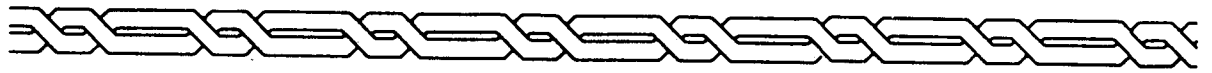
وقد نصح الجاحظ أن يتجنب الأديب الألفاظ السوقية .

مراده باللفظ :

أما مراده باللفظ فيتضح - أيضا - من مراجعة كلمات في كتبه ، فهو تارة يريد الألفاظ المفردة ، وتارة يرد الأسلوب ، كما في عبارته المشهورة : وإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير .

وهو يصدر في كل ما كتب عن غرض أصيل عنده ، ذلك أنه رجل عاش في بيئة المتكلفين ، وكان البحث في إعجاز القرآن من أكبر المسائل التي يجرى الكلام حولها في هذه البيئة ، ولذلك نجده - مثلا - حين يتعرض لبيان كثير من مجازات القرآن يكشف من قصد نبيل ، فهو يرى أن للعرب أمثالا ، واشتقاقا وأبنية ... إلى آخر ما أثبتته قريبا .

وقد قدمت أن الجاحظ يرى أن القرآن معجز بنظمه ، ولكن كيف يتفق هذا الرأي مع قوله بالصرقة ، وهذا المذهب يقتضي - فيما هو الشائع المعروف - أن العرب كانوا قادرين على معارضة



من الحتم - إذا - أن نفهم عباراته في الصرفة على وجه آخر ، يتفق مع رأيه الأصيل في إعجاز القرآن ، وبذلك نفسر الصرفة تفسيراً جديداً ، ربما كان فيه بعض الحق .

قال الجاحظ - بعد أن بسط القول ، وضرب الأمثلة لصرف أوهام الناس عما يعرفونه - : ومن ذلك صرفهم عن معارضة القرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه : (ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب ، وأشبه الأعراب ، والنساء ، وأشبه النساء ، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض الأعراب ، ولكثر القيل والقال فكان لله ذلك التدبير الذي لا يغلبه العباد ، ولو اجتمعوا له ^(١٤٢)) .

ويقول في موضع آخر : (وذكرنا صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن ، ولم يأتوا به مضطرباً ولا ملفقاً ولا مستكراً ، إذ كان في ذلك لأهل الشعب متعلق ^(١٤٣)) .

وقبل أن نثبت هنا تفسيرنا للصرفة عند الجاحظ نؤكد أنه يقول بالإعجاز البياني للقرآن ، فقد أكثر من ترديد هذا الرأي ، وأكثر من القول بأن الله تعالى تحدى العرب بنظم القرآن .

وقد نقلت فيما سبق كلمة صاحب (المواقف) السيد الشريف الجرجاني التي نسب فيها إلى الجاحظ القول بالإعجاز البياني .

وأراني غير راض عن هذا التعليل ، فإن الجاحظ لم يكن من الغفلة بحيث يطيل الدفاع عن مذهب ، وينسبه لنفسه ، وهو يدعو لمذهب آخر يناقضه .

وهذه العبارات جاءت في كتاب الحيوان ، وهو كتاب ألفه الجاحظ في أخريات حياته ^(١٤٠) ، أي بعد ما بلغ الجاحظ من العلم ، وحسن الرأي ، والعقل أكمل ما يكون ، فبعد أن يكون قوله هذا أثراً من آثار أستاذه لم يتنبه له ، أو يكون ناقلاً ، مجرد ناقل .

ثم إنه ألف كتاب الحيوان بعد تأليف كتاب : (نظم القرآن) بدليل ما جاء في مقدمة كتاب الحيوان يخاطب من عاب كتبه : (وعبت كتابي في خلق القرآن ... كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه ... كما عبت كتاب الحجة في النبوة ^(١٤١)) .

وكتاب حجج النبوة الذي تفيد هذه العبارة أنه سبق كتاب الحيوان يذهب فيه الجاحظ إلى أن القرآن معجز بنظمه ، كمذهبه في كل كتبه .

فمذهب الرجل في الإعجاز كان معروفاً عند ما ألف كتاب (الحيوان) ، فقد رده كثيراً في الكتب والرسائل التي سبقت هذا الكتاب ، والتي أشار إلى بعضها في مقدمته ، فكيف نعقل أن القول بالصرفة جرى على قلمه دون أن يلقي إليه بالاً ، أو نقله عن أستاذه ولم ينوه بالنقل ، مع أننا عرفنا أنه في كتاب حجج النبوة رد كل شبه النظام ، وشبه أصحاب النظام - كما يقول - ؟!

(١٤٢) الحيوان ج ٤ . ص ٨٩ ، وما بعدها

(١٤٣) الحيوان ج ٦ . ص ٢٦٩ .

(١٤٠) انظر مقدمة محقق الكتاب ص ٢٤ وما بعدها . ط . المعارف

(١٤١) الحيوان ج ١ . ص ٩



ومما قاله الجاحظ - فيما يؤيد مذهبه البياني في الإعجاز - وقد عرض لعجز العرب عن المعارضة : (فلم يرم ذلك - يريد المعارضة - خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ، ويحامي عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارض ، وقابل ، وناقض)

حتى لو أراد المعارضة ما استطاع : (ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن ، وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه ، ولواستعان بجميع قحطان وعدنان (١٤٤) .

وأمر آخر على جانب من الخطر في هذا الموضوع. ذلك أن الجاحظ في نفس الموضوع الذي ذكر فيه الصرفة وصف القرآن بأنه بديع النظم لا يقدر على مثله العباد ، وهذا يدلنا على صدقه (١٤٥). وربما كان أقوى في الدلالة من كل أولئك أن الجاحظ أن العرب عاجزون عن أن يساموا النبي

- صلى الله عليه وسلم - في بلاغته ، وأن يجاروه في فصاحته ، فكيف يمكن أن يرى أنهم يستطيعون أن يساموا القرآن لولا أن الله صرفهم عن معارضته ، ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم وبلاغته ، ثم قال : (فإذا رأيت مكانه الشعراء ، وفهمته الخطباء ، ومن قد تعبد للمعاني ، وتعود نظمها ، وتنضيدها وتأليفها وتنسيقها ، واستخراجها من مدافنها ، وأثارها من أماكنها . علموا أنهم لا يبلغون

بجميع ما معهم ، مما قد استفرغهم ، واستفرك مجهودهم ، وبكثير مما حوّلوه قليلا مما يكون معه على البداة والفجاءة ، من غير تقدم في طلبه ، واختلاف إلى أهله) .

كل هذا يؤكد لنا أن الجاحظ لم يرد من الصرفة المعنى الشائع ، وهو أن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثل القرآن بلاغة وفصاحة لولا أن الله صرفهم ، وإنما يقصد أن الله تعالى صرف العرب - مع عدم قدرتهم عن أن يأتوا بأية معارضة للقرآن - لئلا يشتبه الأمر على الأعراب ، وأشتباه الأعراب ، ويوجد من يزعم أن هذا كالقرآن في علو الطبقة ، ثم يطلبون المحاكمة ، ويثور الجدل حول كتاب الله تعالى .

فالصرف - مع العجز - صرف عن المحاولة التي تكون نتيجتها أن يحجى المفسرون بشيء تشتبه به القصة على بعض الناس .

والصرف بهذا الوجه ليس غريبا على علمائنا السابقين ، فإن منهم من جعلها وجها من وجوه الإعجاز مع وجوه آخر للإعجاز ، منها البلاغة التي لا يقدر على مثلها العباد (١٤٦) .

وبذلك خلص أن الجاحظ يجعل الفصاحة في الألفاظ ، والبلاغة فيها هي السر في جودة الكلام العربي الجيد ، وهما السر في إعجاز القرآن .

ونجمل هنا الأوصاف التي وصف بها الجاحظ كلا من اللفظ والمعنى .

فمن أوصاف اللفظ : البلاغة ، وصحة

(١٤٤) رسالة حجج النبوة (هامش الكامل) ج ١ ص ٢٩١

(١٤٥) الحيوان ج ٤ ص ٩٠

(١٤٦) عن إعجاز القرآن للرافعي ص ٣٩٧ .

(١٤٧) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١٠١ .

الطبع ، والبعد عن الاستكراه ، والتنزه عن الاختلاف ، والصون عن التكلف ، والشرف والجزالة ، والفخامة ، واعتدال الوزن ، واستواء النظم ، وحسن الموقع ، وجمال المذهب ، والقصد ، وسهولة المخرج ، والمهابة ، والحلاوة ، وكرم الديباجة ، والرونق ، والسبك والنحت ، وتلاحم الأجزاء ، وكثرة الماء .

وفي ضد ذلك : العامية والسوقية ، والوَحشية ، والغرابية ، والسخف ، والاستكراه ، والتنافر ، وبأنه يكيد اللسان ، ويشق عليها النطق .

أما المعاني . فمن أوصافها - عنده - الشرف ، والكرم ، والفصاحة ، والحلاوة ، واللفظ ، والأحكام ، والغرابية ، والاختراع . وهو - كما يؤخذ مما قدمت - يشترط في اللفظ الذي يستعمله الكاتب أو الشاعر ، أو الخطيب صفات خاصة ، فينبغي - كما يرى - أن يكون اللفظ خفيفا على اللسان عذبا في الأسماع ، بريئا من التعقيد ، موافقا للحال ، مشاكلا للمعنى ، قريب الدلالة على معناه ، وألا يهذهبه كل التهذيب .

ومن موافقة الألفاظ للحالة ما نبه إليه في قوله : (وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضا في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام فإن ذلك أفهم لهم عني ، وأخف لمؤنتهم عليّ . ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد

امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلا بينها وبين تلك الصناعة . وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة ، أو في مخاطبة العوام والتجار ... الخ . وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب ، وألفاظ العوام ، وهو في صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقام ، ولكل صناعة شكل (١٤٨) .

وأختم هذا الفصل بما قاله الجاحظ معتذرا ، أو كالمعتذر عن إطالة القول : وما أكثر ما يعرض في وقت إكبابي على هذا الكتاب ، وإطالتي الكلام ، وإطناي في القول بيت ابن هرمة ، حيث يقول :

إن الحديث تغر القوم خلوته
حتى يلج بهم عني وأكثار
وقولهم في المثل : كل جحر في الخلاء يُسر .

وأنا أعوذ بالله أن أغر من نفسي عند غيبة خصمي ، وتصفح العلماء لكلامي ، فأني أعلم أن فتنة اللسان والقلم أشد من فتنة النساء ، والحرص على المال (١٤٩) .

وبقوله : (فإن نظرت في هذا الكتاب فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا يذهب مذهب التعنت ، ومذهب من إذا رأى خيرا كتبه ، وإذا رأى شرا أذاعه .

(١٤٨) الحيوان ج ٣ ص ٣٦٨ .

(١٤٩) الحيوان ج ٤ ص ٢٠٨ .



وليعلم من فعل ذلك أنه قد تعرض لباب إن
أخذ بمثله ، وتعرض له في قوله وكتبه أن ليس ذلك
إلا من سبيل العقوبة ، والأخذ بالظلامة ، فليُنظر
فيه على مثال ما أدب الله به ، وعرف كيف يكون

النظر والتفكير والاعتبار والتعليم) .
وأخيرا قوله : (وأنا أعيد نفسي بالله أن أقول
إلا له ، وأعيدك بالله أن تسمع إلا له ^(١٥١) .

والحمد لله رب العالمين ؟
د. علي العماري

(١٥٠) الحيوان ج ٢١٠ .
(١٥١) الحيوان ج ٤ . ص ٢١١ .

